# سيد الضريح

## قصص قصيرة

عبدالله خليفة

**الكتاب : سيد الضريح (قصص)**

**الكاتب : عبدالله خليفة / كاتب من البحرين**

**الطبعة : ٢٠١٥**

**الناشر : وكالة الصحافة العربية ( ناشرون)**

**٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة**

**جمهورية مصر العربية**

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

**http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com**

**All rights reserved**. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

**جميع الحقوق محفوظة** : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

**دار الكتب المصرية**

**فهرسة إثناء النشر**

**خليفة ، عبدالله**

**سيد الضريح / خليفة عبدالله – الجيزة : وكالة الصحافة العربية، ٢٠٠٣ .**

**تدمك : ٥ – ٦٠ – ٥٧٧٢ – ٩٧٧**

**٠٠ ص ، ٠٠ سم .**

**رقم الإيداع / ٥٧٣٣ / ٢٠٠٧**

# سيد الضريح

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

# طائران على عرش النار

## (١)

انفتح باب المصعد، وخرجتُ مع أبنتى الى الممر النظيف ذى الروائح الطيبة النفاذة .

استقبلنا ضجة المرضى المتكدسين فى ردهة الاستقبال، حشود من الوجوه المتبعة والقلقة ، ومن الملفات والصراخ والسعال.

راحت "بشرى" تلاعب طفلاً، تقرصه قرصة خفيفة ، وترفرف بيديها واذنيها وتهزُ شعرها ، غير انه كان واجماً ، مترنحاً وراء ظهر امرأة ، ورقة صفراء على وشك السقوط .

آخذها من يدها ، فتنفلتُ راكضةً ، قافزة ، متراجعة الىّ فجأة وهى تقهقه .

الممرات الأنيقة ، المصاعد الدقيقة ، الجدران اللامعة، الممرضات الهنديات، الأطباء العرب الهادئون المشغولون وراء الطاولات واكداس الورق وعلب الدواء، كلها تبعثُ على القلق والحيرة والخوف .

أحمل قلبى فى يدى ، أضيح بين الغرف والممرات والوجوه ، أسال عن طبيبى ، وتأتينى إجابات لا أسمعها وأذهب الى أمكنة لا أريدها ، وتطل على ذات الحشود من المرضى والممرضات، بين اكداس الورق والحقائب والكراسي البلاستيكية الصفراء المزروعة فى البلاط كالتعاويذ الأخيرة عن الموت، و " بشوى " تضيع بين سيقان الزوار ومعاطف الاطباء البيضاء والأسرة الحية للمرضى والجثث.

فى نهايه الممر ، رأيت الغرفة التى كنت أتو ه عنها.

مقبض الباب البارد ، الإنفتاحة السريعة على المكتب ، وبروز وجه الطبيب وهو يتحسس جبينه فى حركة مباغتة متوترة ، قطعت قلبى تماماً عن جذوره فى الهواء .

مقدمات الأبحاث ترهقنى ، لكن فى مقدمة الطبيب الطويلة الثقيلة، كنت أنشر على الكرسي ، وأجد إن كتفى لا يخصنى ولا يؤلمنى.

– أرجوك.. أرجوك.. قل لى الحقيقة .

يتطلع الى بابتسامة صغيرة ، وهو يخاطب أبنتى :

– الا يمكنك أن تلعبى قليلاً فى الردهة ؟

كان طاقة من الثلج موضوعة فى خدمة العذاب .

ثم بدأت الحرائق وراء ظهرى و أمام عينى ، و كأن أشباحآ جاءت وانتزعتنى من مقعدى ، والقتنى فى الممر الوحيد المفتوح على

الفـضاء ، وأنـا أتـدلى ، وأرى الـسيارات تتـدفق فى الـشوارع، وكـرات الصياح لا تصل الى الزجاج .

– ماذا..ماذا..تقول..إننى لا افهم !

– دمُ أبنتك ليس على ما يرام . كريات الدم البيضاء ، تلتهم كريات الدم الحمراء ، التى لا تتكاثر .. لذا ترى أبنتك شاحبة..

كانت تريد أن تصوم هذه الطفلة ، وأردت أن أمنعها ، لكنها أصرت..فحدث..تعرف شهر رمضان وحماس الصغار . .

– لا! لا! ليس الأمر ذا علاقة بالصوم ..

– ماذا تعنى ؟!!

– إنه مرض نادر . قليلون الذين يصابون به ، إنه داء عميق فى العظام . إن العظام تعجز أن تنتج دماً ، ولذا علينا أن نعطيها دماً باستمرار .. ينبغى أن نأخذ عينات من دماء الأسرة كلها.. للتبرع .

صمتّ وصمتُ، كنتُ أدخلُ فى فراغ غريب ، كانت حشاشش حامضة تلتهم صدرى، وثمة ذئاب تعوى فى روحى ، وأنا شريد ، وحيد ، فى البرية الثكلى .

خاطبنى الطبيبُ بلهجة ودية بدت ختاماً غير متوقع لعرض دموى :

– دكتور حامد أنت أستاذ جامعى ، ومؤلف فلسفى معروف، وتدرك إن قضاء الله ومشئيته لا يردان ..

فتحتُ الباب فوجدتها تلعب ، تضربُ " قسيا " وهميا فى مربعات خططتها ، ساقها البيضاء الدقيقة الصغيرة ذكرتنى بالكريات التى تلتهمها .

## ( ٢ )

فى الليل وأنا أبلع الورق والأرق تأتى أمها مرعوبة :

– بشرى سقطت فاقدة الوعى !

نلهث اليها ، نحملها فى العربة ، نتوغل فى الحارة ذات الأمعاء الغلاظ ، نصدم الظلام والحصى والأشباح ، نختنق من الرطوبة والحر والمكيف الساخن ، ننطلق فى طرق المطبات واللصوص ، لا نشعر بشئ ، نزيل البعوض الملتصق بدمنا ، نخرج الى طرق الأسفلت المضاءة عند القصور والمخافر والبنايات الكبرى ، نتلفت الى "بشرى" ، نتحسس قلبها ، نمسك نبضها الخافت المتوارى تحت المقعد ، نحملها بين حشود السيارات النائمة فى ساحة المستشفى ، نجرى نحو الموظفين المثرثرين وراء المكاتب ، النعسانين ، الغائصين فى شجون يومهم ، هذا يطلب شايا ثقيلاً ، وآخر يسال عن وقت انتهاء النوبة ، ثم ينتبهون الىّ ، ويحركون الورق بحثاً عن الموظف المسئول ، والطبيب المناوب ، والشاى قد أتى ويندلع صوت الرشف والاستمتاع ، وتبدأ عاصفة من الإبر بالتجول فى جسمى ، وينمو صراخى ، وجرى مع السرير المتحرك ، وصلبى فى المصعد ، ورعب الأم ياكلنى أكثر من صمت

الابنة ، اوالممرضات النائمات تحت ضؤ المصابيح ينتبهن الى صوت النقالة ذات العجلات المرعبة ، ويدُخلن الطفلة الى غرفة ما ، وتبدأ أسئلة البحث عن الاوراق ، ومعرفة الحالة ، ورقم الملف ، وصخب استدعاء الطبيب المناوب المشغول بحالة صعبة ، ولعله مختف مع إحدى الممرضات ، أونائماً ، لكن صرخاتى لا تفلح فى تحريك سلك من مشاعر الممرضات الهنديات ، اللاتى تحولن الى ساحرات قادمات من الريف المهجور والبحر الغارق بالأسماك، مشعثات الشعر، مدمدمات بين البخور والتعاويذ.

ثم جاء كيس الدم وتسلل الى ذلك الساعد الرقيق النحيف الشاحب، الغافى على اللحاف . وكانت الشمس قد بزغت وراء القضبان والدخان وروائح الحريق الكونى..

أيها الليل الغامض الصاعدُ فوق جسدى بالسكاكين، لا تزال ظلمتك تنزف على الشراشف البيضاء ، ومساميرك تأكل عيونى !.

## ( ٣ )

آخذها بعيداً عن الأبنية والدخان والضوضاء، الى الشواطئ والجزر المسالمة وسط المياه والنخيل والينابيع . نمشى على القواقع ، نأكل الأسماك القافزة الى الشباك، نصنع بيوتاً كبيرة من الرمل بلا إيجار، أحضر الأعشاش الخالية من البيض والماضى ، نسبح وسط نبع أزرق، ونقرأ خطوط الاحجار وتعاويذها السرية للماء والهواء .

نتلحف الليل معاً، أضم ساعدى وصدرى الى عروقها ، أود أن أدخل الجمر والضؤ الى خلاياها المتوارية . أمسك ذلك العظم المعادى وأدس حبرى ودمى الى كهوفه الوحشية

لكن الصغيرة تصحو فزعة، وتتأوه، أحضنها وأرفعها وأجرى نحو الشاطئ والطرق، تدمدم المحركات وتتفجر خيوط الماء والخوف، أطير الى تلك الممرات النظيفة، والأسرة الغافية ، الشاخبة بالدم .

أجرى الى الطبيب . أصل اليه وهو وراء التليفونات النقالة والمقاعد وكتل المنتظرين المنتفخة أوراماً وأوجاعاً .

لا يزال فى جزيرته الناشية الهادئة وسط بحار الدم الجماجم ، غير ملوث بقطرة من الهم يقول :

– إن الفحوص وعينات الدم أثبتت ما توقعناه . .

– .. لكن .. ماذا بعد .. أبنتى تذوب .. افعلوا شيئاً !

– أنت لديك متبرع وهو أبنك ودمه مطابق لمواصفات الزرع . كل ما يلزمك هو النقود الكافية والسفر، من جهتنا سنجهز لك كل شئ : الأوراق، ونتصل بالمستشفى ، ونأخذ موعداً للعلاج .. كل ما عليك هو توفير المال.. الذى هو ..

وصُدمت بالرقم ،كل هذه الأصفار! لو أننى عملتُ خمسين سنة وبعتُ أعضائى ، وزحفت على سجاجيد القصور ، لم أجمع بعضه..

ركضت الى البنوك وشركات التأمين على الحياة والأصدقاء. لم

أعثر على شئ . فضت الخزائن فجأة أمامى .

أيها المقاولون على أعضائى، أيها المشترون لعقلى، قضت حياتى كلها بين الورق، أرمم عقلاً عند المعتزلة، وأكشف الجنون عند المتصوفة، والحديد الصلد عند الأشاعرة، والآن علىّ أن أطارد كريات بيضاء تلتهم أيامى ..

أصدم بشجرة على الطريق . أتلقى لعنات وصرخات زوجتى أسبزح فى بحر من الكريات الملونة المتشاجرة المتشظية ..

أجلس فجأة لأكتب رسالة الى الملك. طوال عمرى لم أهنئه بعيد ميلاده وأيام تتويجه وختان أولاده .

قضيت عمرى أراسل الجاحظ والفارابى وأبن سينا ، وأدخل مجالسهم ورسائلهم بلا إستئذان . أعرف كنف أخاطبهم وأستل منهم الضؤ والبراعم .

بعثرت كثراً . من الوقت والجلد والخلايا لأصل الى قلب الملك تخيلت إننى أدخل على هذا الرجل ، وأنا أحمل أبنتى بين كتفى، وأريه غرزات الإبر ، ومواقع سحب الدم والبقع الغريبة الصارخة بالصفار الذى ياكل العمود الفقرى .

هنا يا سيدى الشبح الملعون الذى يستل من أبنتى الحياة ! سأزحف يا ملكى طوال عمرى على سجاجسدك الباذخة ، وأضئ قصورك الوفيرة بحبرى وأيامى ودموعى، سأضع عقلى فى خامة خيولك وأبلك ..

أتخيل الملك يقول :

– ما هذا يا دكتور حامد إننى أجلك عن كل ذلك ، أنت نبراس فى هذا الوطن. قوافل كثيرة تخرجت من خيمة علمك ..

أنام قرب ساعد خافت من الحياة ، وقد كبرت أبنتى فى المرض، إستطالت، تبدلت تلك الطفلة، غدت اكثر طولاً لكنه طول مرعب، هيكل عظمى طويل يلحق به لحاف رقيق من الجلد.. سكة حديد صفراء ترسل النور الى جهة مجهولة.

كل ليلة تدوى صفارة سيارة الاسعاف تهز الصمت الكثيف والنوم اللذيذ، وانا معلق بخيوط النجوم، اضع يدى كل صباح على ابراجها ، استل حظاً مشرقاً وفرجة فى كهف السرطان .

اتخيل مكالمة ترنُ فى صحراء الشظف وقفار الصمت والرعب، وارى حبلا يتدلى من العرش . ارى ماء من الرحمة وحمامات من الحب ترفرف حول وجهى :

ايها الإله العظيم، ايها الملك الرحيم، ايها الأنبياء المقدسون، يا جبرائيل، ايتها الملائكة، ايها العقل الفعال، يا اعضاء اللجنة المركزية لحزبنا المكافح، ايها الأخوة فى العقل والجنون، يا صناديق الدم، يا بنوك الأعضاء، أيها السحرة، أيها المشعوذون، يا خزائن الروح، يا صناع النور والحياة، انت ايتها الأفلاك التى سبحت إليك الأرواح والأشباح وعقول الفارابى والرازى والكندى ..؛

قطرة واحدة من الروح، قطرة واحدة من الدم الأبدى، تسقط فوق هذا الجسد الرهيف المسجى وحيداً ذابلاً فى الليل، والنهار، فى ضجيج الحياة الصاخب وراء الجداران، قطرة واحدة من الأزل فى هذه العظام الطويلة البارزة، لهذه الطفلة العجوز المرعوبة التى يحتضنها أب مفلس، خاو من الروح والمادة، باع الكثير من أشيائه .. ليمضى الى مستشفى هائلة قريبة من بلده .

كل شئ هنا بالأزرار. طوابق تمتد الى السماء . ووراءها الصحراء العربية بقوافلها وخيامها البعيدة . هنا تطارد الأجهزة والشاشات كل نملة مندسة فى الجسد.

أجثم طويلاً على المقاعد. اجرى من غرفة الى غرفة

يقف طابور طويل من المنتظرين لدخول عمليات الزرع . هياكل من الخشب يشدها بريق أخير الى الحياة.

فى كل لحظة تخرج روح . فى كل غرفة لموسيقى المصاعد المصقولة ، وفى كل ومضة من الأزرار الملونة، وفى كل إنتباهة من اجهزة الحاسب وشاشاتها الهائلة ؛ توضع جثة فى الرمال العربية العطشى الى النخاع والدم والعقل .

طابور طويل من الصبية والصبايا توقف كلياً عن اللعب، وتحجر قرب الآلات .

وضعت طفلتى على قائمة الانتظار المروعة .

هنا يغدو للوساطة معنى الميلاد والبعث . هنا تصير للمكالمات المهمة دوى الروح وهى تنفجر فى الأعضاء اليابسة . هنا يجئ المسيح فى كلمة شيخ او أمير . هنا الحد الفاصل بين الملكوت والتابوت .

وأنا .. من أعرف سوى صف طويل من الزنادقة والشعراء الضائعين وسط الصحراء، والعناوين الذائبة فى القفار ..

يا سيدى، يا الهى، يا شفيعى، كن معى فى هذه الرمضاء الحارقة ، وليتعطف قلب صلد، ولتتفجر صخرة بالماء، ولتتحول هذه الوجوه البدوية الإلكترونية الى رحمة ..

حمم من البروق والأصوات أنقلها عبر الأسلاك والآلات الى مدن بعيدة، الى وجوه أحبها او لا اعرفها . أنتزع شخصيات من اجتماعاتها، من اسرتها، من معانقاتها، من شوارعها المزدحمة بالمال والدخان، أنقلها الى هذه الغرفة القصية فى عمارة عملاقة تحدق فى الرمال الصفراء الزاحفة على الشجر والزهر، آخذها الى سرير إبنتى، أضع السماعة على خلاياها التى تنظفئ واحدة واحدة، مثل مصابيح آخر الليل .. فتنفجر كلمة من هذا ، ويحل صمت مروع عند آخر، وتتصادم الشفاه والجدران والخطوط وتذوى الشيكات والآهات، ثم يحل سكون مطبق ..

آخذ إبنتى وأحضنها عائداً . غدت خفيفة جداً، لكن ثمة ذبالة أخيرة من الضؤ فى الرماد.

## (٤)

بين أكداس الورق الحقائب والحقائق تصرخ زوجتى :

– ماذا فعلت طوال عمرك؟ ماذا افادتنا شهاداتك وأبحاثك ..؟ تركت أبنتنا تموت .. ولم تفعل اى شئ ؟!

عيناها متورمتان بالدموع . وصدرها الناهد المتفجر رحلت عصافيره . لم يعدُ بين أصابعها سوى الرصاص :

– حتى أبننأا أدخلناه مستشفى الأعصاب من خوفه .. ماذا بقى بيننا ؟ لماذا لا ننفصل الآن ؟!

فوجئت بتفاقم الرعب فى ولدى . هذا الذى جهزناه كى يعطى أخته بعضاً من دمه . هذا الزارع الصغير للحياة .

أقول له :

– لا يجب ان تخشى شيئاً ، هى مجرد قطرات تُؤخذ منك . انت الوحيد الذى يمكنه إنقاذها . دمك مثل دمها . وحين يدخل عظامها سيستقر هناك ويبعث الحياة . ستعود أختك الى العيش معك ..

لم أدر ان هذا الكلام سوف يسبب له أعظم القلق والخوف . رأيناه فجأة يحطم الصحون، ويترنح على الأرض، ويرتجف .

يتعلق بعنقى :

– أبى .. سوف تأخذون دمى .. سأموت .. سيظهر المرض فىّ ..!

كان يرى ساعد أخته المثقوب بالحفر وذلك الجثوم الطويل على الاسرة، والأشباح التى تأكلها ، والسماء ، والجدران ، والأب،والأم ، والملك ، والشوارع ، التى تدعها للافتراس الغريب..

أفكر على نحو غريب : إننى لا يجب ان اخسر الابنة والابن معاً ، ليبقى واحد .. على الأقل !

أرتعب وأستسلم .

أحاول شد الأم الى قلبى وروحى، نتبعثر بين المقاعد ، وبين زجاجات الأدوية ، والمخاوف، والأحلام، نلتحم مثل عصفورين مبللين بالقار، أدفن راسى فى حديقة صدرها، موقناً أن العصافير ستعود .

نجمع شجاعتينا المفتتين، وأعضاءنا المسلوقة فى المستشفيات والردهات، ونهمس فى روح ولدنا، فى كهفه، فى شظايا جرأته، ونأخذه فينا ..

يرن التليفون واسمع صوتاً معدنياً :

– إن الملك قد قرأ رسالتك وقد أمر بمعونة .

أخيراً هطل المطر والفرح . نبتت أعشاب فى تربة الحصى .

أندفع الى ذلك المبنى الشامخ . أوقف سيارتى بعيداً عن أسواره وحراسه ونقاط تفتيشه . لا أقيم وزناً للشمس والحراب والأيدى التى تعبث بجيوبى وجلدى . أنتظر طويلاً ، أقاد فى دهاليز وممرات ومصاعد . يتناولنى حارس ويسلمنى الى موظف ، ثم يأخذنى شرطى ويقذفنى فى

غرفة كاتب . يضع دفتراً وأرى جداول واسماء وعطايا وأرقاماً هائلة ، وأبحث عن أسمى ومعونتى فأذهل . مجرد وريقات قليلة لا تملأ انبوباً زجاجياً بالماء و لا عظماً بالدم .

انزل من الطوابق فوق الإسفلت الحارق .

كانت السماء منفية ، ممتلئة بالأقمار والحديد ، كان المطر من الرذاذ الزجاجى المشتعل . كانت الكريات البيضاء تتهم الكريات الحمراء . كانت طوابير من البشر الصغار اللذين يختفون فى الدخان الجدران . كان البياض يأكل الأطفال التفاح والدفاتر .

ايها الرفاق دعونى أشرب الى الفجر . أتحلل الى ذرات من اليأس . أكلم الخنافس . البياض يتسع وينتشر على الورق .

أصطدم بأحدهم وانا أطارد طبيب أبنتى المتوارى . يقول :

– خطاب واحد منه وأبنتك تطير حالاً الى روما !

أركض، اصطدم بكثيرين ، أحتل سلك تليفونه النقال ، المشغول دوماً، ألقاه فى خضم طوفان المرضى، أجرى وراءه، يندس بين الأسرة والبراميل والشراشف . أزحف إليه، أطيح بالأعضاء المقطوعة، أستعيد أدعيته لكى يصير وزيراً ، أطالع جثث الأطفال المكدسة فى المشرحة . أرى الدم الرخيص الذى يُباع، وعربات الفحم التى تمضى بالصغار الى الآخرة .

– مواردنا شحيحة .. حالات كثيرة ..

ونهمُ النمل لا يتوقف لالتهام سكر النبات . ممر طويل . بلاط بارد .

## (٥)

للموت تقاليده اليومية الغريبة . عليك ان تتأكد من استلام جثة أبنتك عبر الورق وبرؤية وجهها وكشف غطائها .. كل هذه الشراشف والروائح أكلت عظمى !

يوم الجمعة مبروك كما تقول ثلة الملتحين . يريدون أن أضع نعشها حتى موعد صلاة الظهر يقولون إن الصلاة ستمحى آثامها ..

أبكى بحرقة : يا ليتها ملأت الدنيا آثاماً ! لم يعرف ذلك العود طعم الكذب وزبد البيرة وعصف القبل ..

كان صراخ امها وراء ظهرى . كأنه هزة أرضية دكت المكان لم أرها تتشقق هكذا .

حشد من الأصدقاء حولى فى هدوء المقبرة . أعشاب وغبار وطيور قليلة . أبنى يضع رأسه قرب صدرى . و "بشرى" نزلت فى التراب .. وداعاً يا أبنتى ، وداعاً يا روحى !

# وراء الجبال

القرية بيوت صغيرة كالحة تحت الجبال الشاهقة . نتؤات من الخشب و الحجر واللحم ملقاة فى قعر الصخور . نقطة من الخضرة والدم والضؤ تتنفس أمام المادة والموت . معبر وحيدا أخير للحياة فى قبر الأحجار .

حين يرمق يحي ذلك الامتداد الشاهق لا يُصغى إلا الى عزف الأساطير والصقور .

ليس ثمة فرجة من سهل ، ليس ثمة بوابة للخروج ، ليس ثمة نسر قادرعلى تجاوز هذه العمالقة الكبار من الحصار والرعب .

ليلاً ونهاراً يعمل فى هذه الآلة الغريبة وسط عريشه المفتوح للعيون الشكاكة والأيدى العابثة .

لم يأت أحد منذ قرون الى القرية . لا يوجد ساعى بريد . ليس ثمة قوافل تعبر الى هذا المكان النائى المعزول عن العالم .

لا يصدق أهل القرية إن هناك بشراً غيرهم وراء الجبال . وعندما صنع ذلك الجهاز الحساس الذى التقط أصواتاً غريبة دهشوا، وتحدثوا طويلاً عن معجزات السحرة اللذين يشتغلون فى كهوف الجبال .

هنا الارض الخضراء الصغيرة المتشققة بين الأحجار، التى تنبت بدم، وتكتسحها السيول المدمرة، هنا الرجال والنساء المغروزون بين خناجر الأرض والشوك ولحظات الحب الوامضة فى الليل .

هنا الأطفال اللذين يطلعون مع ثغاء الماعز و روث البقر وضحك النجوم وإلتماعات الأشباح فى الصخور .

ينغمس يحيى فى المعدن المضئ .

هذه الآلة، التى تشكلت من بقايا المحاريث والصفائح، تضج فى الليل والنهار، تقذف الهواء الساخن ، وتدير المرواح القوية .

يقترب سامى و نوره منه، يحدقان فى الخرائط الغريبة، و أجهزة النداء والنبض والراديو، ويسمعان الأصوات ، ويحركان الأضواء ، وينبهران .

وفى كل مرة تنفجر هذه الآلة ، وتنغرز العجلات بين الصخور والوحل، كانا يساعدانه فى حملها وإعادتها الى هذا العريش المفتوح للفضاء ..

من الطمى، من الشوك، من الدفاتر الجلدية، من الكتب الصفراء المدفونة فى المخازن والتراب، من أحلام الطفولة ن من

ذبذبات الضؤ ، من حفلات الأهالى الدموية ؛ جمع السطور والمعدن والضؤ والأمل، سنوات وهو يجمع الفلين و العظام والحديد والكلام .

يرون ضؤً غريباً يسطع فى ذلك الكوخ ، والورق يمتد ، ويرسم الجبال ويحلق بعيداً .

يثرثرون فى مجالسهم ، يغضبون ، يأتون إليه بفؤوسهم :

– ماذا تريد ان تفعل .. لماذا تكلم الجن ؟!

– إننى أصنع شيئاً لعبور هذه الجبال .. أتعجبكم هذه العيشة الرهيبة كالضفادع والهوام ؟ هناك وراء الجبال .. الأرض الخضراء والمدن والسعادة !

يندفعون الى آلته، يرفعون أدواتهم الحادة يضع جسده فوقها يصرخون :

– منذ رحت تشتغل على هذا العفريت .. والارض تبور ، والمطر أنقطع ، والجواميس نفقت .. أنت لعنة ، وعملك سحر شيطانى ! من أين طلعت لنا ؟ كنا فى هناء . كانت الأرض تمتلئ بالحبوب ، والأطفال يملأون البرارى .. والآن أكواخ رثة .. عراك مستمر .. جوع مضن ، يالك من نحس !

كم مرة ركض الى الكوخ وهو يشتعل ! كم مرة ساعده الفتية ليجمع خردة الحديد وليخفيها آباؤهم ! كم مرة سلم أضلاعه وسنواته للنار !

يحرق السحرة البخور فى كهوف الجبال . يرسمون وجهه بخطوط الجمر والدخان . يكتشفون أسباب لعنات الماعز والنخل والخراف فى معدنه الملعون !

يصرخ السحرة فى مغاراتهم العديدة المتعادية . تتكون خطوط من البارود والخنادق ، تمتلئ القرية بحريق رهيب .

تبدو أعواد الأكواخ ، والأسياخ المنتصبة الحامية ، وخطوط الدخان المترجرجة ، وروائح الأرض والجلود المشوية ، وأكوام الأشياء المنقذة ، مثل آثار الزيارات الرهيبة للنيازك ، مثل حفلات الزار وانهيارات الجليد .

يصرخ يحيى فى الليل ن ويترنح لشواء البشر ، ولقوافل الموتى، وللرجال المجانين اللذين يبحثون عن مسارب آمنة فى الجبال المعادية ، فيتهاوون كطيور ميتة ، ويغدون وجبات لذيذة للنسور .

يصرخ فى العرائش المغلقة المفتوحة للدخان والهلوسة ، ولا احد يأتى إليه سوى نوره وسامى ، يتعكز على قواهما الفتية وضحكاتهما النقية .

وهو يصبح عجوزاً تشتغلُ الآلة بقوة . يبدأ الجسد المعدنى بالانفصال عن إرث الروث والسحرة، لكنه يهبط مقعقعاً على النتؤات، مهتزاً، متألماً ، يكاذ يصطدم بالنخلات المبعثرات .

سامى ونوره يشعلان له المصابيح، ويسهرون طوال الليل يقرآن له المفاتيح والكتب، ويرون الجليد يملأ رؤوس الجبال مضيئاً، مُغلقاً كل شقوق الأمل .

البشر انكمشوا فى بيوتهم، تدثروا بألحفتهم الثقيلة العطنة، يحرقون البخور، ويبصقون فى أفواه الأطفال، ويطعنون الخرز بالإبر، ويذبحون الديكة العوراء ، ويختنون النساء، ويتبركون بالأحجار والأسماء ..

يصرخ : ثمة طوفان قادم . ثمة جليد عارم جبار سيتدفق . ستكتسح الصخور المنازل والزرع ، هلموا الىّ !

لكن الأبواب والاذان تبقى مغلقة .

الربيع يقترب، والجداول الوحشية تتكون، والصخور تتقلقل، والظهور محنية، والعيون محدقة فى النعال المقلوبة ، والمزارات ممتلئة !

راحت الجبال العملاقة تهتز . الكوفيات البيضاء المسالمة فوق رؤوسها تغدو ثعابين من الوحل والحصى والجذوع المندفعة . دمدمة رهيبة تكتسح كل شئ ويهتز الرعاة والغنم فى فواتهم . تنغلق الكهوف على السحرة فى الجبال . ويركض الناس للشرائط المعلقة على القبور .

راحت العجلات ترتفع ، وصمد الجناحان للريح ، والشابان جثما خلفه، لم يكن ثمة سوى هذين الزوجين معه ، ولكنهما كافيان لبدء حياة جديدة .

يتطلعون بأسى الى أنهار المياه والأكواخ والرؤوس، وهى تتدفق نحو أسنان الصخور، وجثث البشر والماعز والبقر تطفو، والأيدى القليلة ترتفع من اللجج، والصرخات تنفجر ثم تغور فى الضجيج المدوى ..

الطائر المعدنى الضوئى يرتفع فوق قمم الفيضان والطوفان، وينفتح المدى اللانهائى للنور .

# ثنائية القتل المتخفى

## (١)

هو ذا شبح يطل علىّ من الحارة التى ماتت، وجه متبعج على النافذة، كأنه يريد ان يخترق الزجاج، من الحارة التى لم تزل بعدُ مثخنة، عمود من السواد، وانا تنتابنى تلك الرعشة الغريبة، وأخفض صوت الموسيقى، و انزوى، والوجه يسكر الزجاج، تتناثر قطعهُ مضيئة لامعة كأنصال السيوف، يسأل هلال :

– يا محمد ..أأنت بعد مستيقظ ؟!

ألتحف بالدثار، وأرتعش، تنتابنى حمى،خطوات الشبح تقترب، يصطك عموده الصلدُ بسريرى الساكن البارد، امتلئ بالعرق

ينكشف اللحاف بسرعة وقوة مخيفة . بطل فى وجهى :

– ماذا تفعل هنا يا محمد؟ أتقرأ فى العتمة ؟ أتكتب شيئاً ؟ ماذا لديك هنا ؟ دعنى اري، ورق، ورق ملئ بالمخاط .. لحسن الحظ.

يقلب جسدى، يدس يديه تحت ثيابى، أقشعر من برودته، تنزل يداه من ظهرى، تستمع بلمسى، الى ...

- أرجوك ، دعنى !

- أنتظر قليلاً، لن أعبأ بشعرك، بل ربما خبأت شيئاً خلف هذين التلين الصلدين المقرفين .. آه، نعم .. ثمة وريقة هنا !

يضئ المصباح ويحدق فى الورقة الشفافة المكرمشة الى ثلاثين ثنية، يدهش من الارقام والمربعات والاسهم وخطوط العرض والطول المتداخلة وصور الغزلان والنمور، والدوائر الى تحتوى على دوائر، وأقنعة، وأسئلة توسع الارتعاشة، يقول :

- ما هذا يا محمد ؟ ألا تكف عن إثارة الرعب فى الحى !

يختفى، تغدو الأبواب مغلقة ، تعود الشظايا الى جسد الألم، وفى كل خمس دقائق يضئ سهم الغرفة، وتنبعث آلام شديدة من جسمى . أزحفُ نحو ثلاجة الأدوية، بقع الدم تتناثر، قطع غريبة من الذكريات والدموع والأمعاء، نزيف طويل منذ ان كانت روحى تطير فوق العريش وتراسل النجوم بالطائرات الورقية والأشعار، منذُ أن أجرت جسدى للمصابين بالحمى والهذيان .

أزحف والأضواء الساطعة تملأ الغرفة ضجة ، ومارشات عسكرية، وبلاغات، وبيانات تحدد موقع زحفى ، وذبذبات حلمى ، فى كل رشة ضوء أفقد خلايا وذكرى ، وحين وصلتُ الثلاجة وأسندت ظهرى النازف على جسدها البارد المرتعش بالنبض تخيلتها

نرجساً ، وسمعتُ شدوها الرهيف فى المطبخ، تقطع أصابعها بسكين، فى كل قطعة من تفاح ، فى كل بئر من جناح ، نندغم فى قبلة أو دمعة ..

أفتح الثلاجة فأجدها بلا نور . يدى تتحسس زجاجاتها المصطكة وحبوبها النائمة فى الورق والفراغ ، وأشعر بيد قوية عنيفة تنتزعنى من بقعتى الملأى بالسوائل واحتمال الضوء .

صوت هلال يأتى مزمجراً هذه المرة :

– قرأ الجهاز الآلى ورقتك الملعونة ، فإذا هى ألغاز للأطفال . ألغاز أصابت الجهاز بالتشوش وعسر الهضم . فتوقف منفجراً فى رأسه الحمراء المضيئة . صرخ بإشارات الخطر ، لكننا لم نعرف كيف نسعفه . ماذا فعلت بنا يا محمد؟ خطُرُ، خطر فى كل ورقك المجنون . اى طفل يمكن ان يحل مثل هذه الألغاز ، لماذا تريد أن تسرب هذه المتاهات فى عقول صغارنا ؟ سوف تنال عقاباً مخيفاً إذا لم تجب على أسئلتنا .

اختفى . زحفتُ نحو السرير . لا أستطيع ان اصعد فوقه .

حين أتذكر كيف امتطيت الحمير والخيول فى حينا الذى كان مفتوحاً على البرارى والحقول، وهزمت الرياح والعواصف والأمطار وخطوط الأفق، أبتسم بفرح، ولكن الأشباح والعفاريت بقيت تجوس فى الخلاء .

تحت السرير الذى تسربت إليه وجدتُ ظفائر نرجس وخواتمها . هنا مدخل يصلُ الى روحها .فى كل ساعة جدب ويأس وحنين أفتحُ المدخل وأمضى إليها . هى هنا تحت الارض، فى حديقة الحى السفلى قصائد وأعشاب ومحارات، تخضننى وتصرخ :

– لماذا تاخرت علىّ ؟!

تدهش من جلدى المدبوغ بالحصى والمسامير والصدمات الكهربائية . ترى فيه كل زوايا الحى، هنا حدادة الحاج مظلوم، هنا تنور عباس، هذه هى البراحة التى يزهر فيها الناس حكايات وأغان، هنا تواعدنا وارتشفنا أول قبلة، وعند القارب المقلوب جثمنا على الرمل، الذى لم يشرب بعدُ ماء المد، ونسجنا فرحنا الغريب الذى استلفنا فيه اللمبات الكهربائية والمساند والسجاجيد والزغاريد . وفى زوايا بيت أبيك وضعنا الطوب والمرايا وصعدنا لصنع الأولاد .. وهناك ذلك السرير الذى انطفأت فيه يا محمد بعد أن جاء أخوك . كيف جننتّ حينما رأيتنى متيبسةً، شجرة الورد الصغيرة المتجولة فى قلبك وكلماتك نزلت إلى الأرض العظمى ، إلى الدفتر الأخير لثمار الحى .

قبل ان أعود الى وجه اليابسة المغمور بالفيضان، ويدى تمسك ضلفة باب العالم السفلى، سمعتُ دمدمة وحشية تزحف نحو بيتى . صرخة هلال لا تخطئها أذنى :

– لن يبقى منك شئ منك يا محمد !

كانت أسنان " البلدوزر " تقضم أول وجبة سريعة من جسد البيت . ترفع المكتبة الى احشائها الواسعة، ثم تلتهم النبات، والأسطوانات، ولفائف تبغى ودماغى الطويلة بطياتها اللانهائية، الوحش الحديدى يفتح فمه لأولادى اللذين يغوصون فى قعره صارخين، وألحفتم وألعاب طفولتهم وسبوراتهم ومنشوراتهم وكوابيسهم، تتناثر فى جوفه وتذوب، الفرن يقعقع وتنفتح ضلفته السفلى عن لهب وأصابع محروقة ورسوم لأشباح، ورؤوس محطمة بالخنازير ومثقوبة العيون بالأسياخ، تتدحرج نحوه وترمقه بشظايا أبصارها..

أغلقُ الباب والأرض تهتز، الحديد يأكل الدولايب والمصابيح، والجدران والجذوع وثلاجة الأدوية والماء والسرير، وبقيتُ أياماً تحت الأرض، أشرب رشحاً صديدياً وآكلُ أعشاباً حجرية، حتى إذا رأيت بيضة طير تفقس فتحت الباب .

لم تعد الأرض لى . تلال من الحجارة والقمامة . دكاكين قميئة يمكلها أغراب . أحد جيرانى مصلوب فوق طبق فضائى . أخشاب مكتبتى وسريرى باب لمبغى .

جثمتُ فى زاويتى، شكلتُ خيمة من حجر ورقع وجريد، استلقيت فى العتمة، تقرفصت، والأحذية والنعال تتجول بين رأسى ورجلى، تتدافع أجساد اللاهين واللاهثين والعاطلين فوقى، أتكور، أخرج سنا رصاصياً وأبدأ الكتابة .

## (٢)

جاء جابر الى اخيه، وجده حطاماً بين حطام احتضنه محمد وقبله وهو هادئ مبتسم يتساءل: ماذا بقى فيه لكى يرسلوننى إليه ؟!

متردد، حائر، خائف، بيتسم، يبكى، يتبول، يجلس، ينهض، يحدق فيما وراء الخيمة، مصاب بحكة فظيعة، يبدو سعيداً وفجأة يبكى، يضحك، يقهقه، يتخفى وراء القماش، يصرخ مذعوراً، يخرج حيات من جلده منتفضة بالدم، يتكور تحت الطاولة مهدداً ..

لا يأبه جابر لمهماته كثيراً ، غير أن منطقة أخية تصيبة بإرتعاشة، وقد عقدوا اجتماعاً طبياً موسعاً لدراسة هذه الإرتعاشة دون ان يتوصلوا الى فهم وجودها .

وضعوا عليها ضوءً أصفر كان ينفجر بقوة فى غرفة القيادة، وكانت كل خطوط الاتصال المتوغلة فى جسم الأرض تتدفق نحوها، وتصيح علامات الإنذار والخطر وتصهل سيارات النجدة دون ان يتمكن جابر من إطفاء تلك الأرتعاشة .

كان يجلس مُصغياً إلى خطب التحاليل والاحتمالات دون ان يصل الى تفسير .

لعلها تعود الى تلك الأيام التى كان الحى فيها بيضة واحدة . وكان هو ومحمد يأكلان من مصائدها ودجاجها وحكاياتها وجراحها ، فراش واحد يضمهما وألحفة قذرة وسقف مهترئ ، وكان محمد هو

الذى يدافع عنه بجسده الفارع بين حشود الطلبة والسراطانات وقروش البحر .

لكنهما تفرقا كثيراً، تجمد محمد فى دكانه يبيع المعلبا والأحلام، يغزل من الدموع أنسجة ، ويحمل النعوش، يحرق التمائم، ويمشى بسبورة بين العميان والصغار .

يكاد جابر ان يقهقه : هذا الأخ الذى غدا نصباً تذكارياً للنبل الأحمق يرقد بين الفئران !

يتطلع إلى نفسه بشموخ وسعادة، لم يضيّع أيامه فى المشاريع الكاسدة ، ألتحق بسرعة بصفوف أعدائه ، قذفوه فى أفران الغاز فأحضر رؤوساً تتكلم .

لم يستطيعوا ان يفرقوا بينه وبين الريبوت المحارب . يصنعون فيه ألغاماً وخرائط تنفجر فيقتحمون المدن ، يصل الى رؤوس الأشجار والأشياء المثمرة ، يُقطّع فى الزنازين وتُسحب أظافره ويُنقع فى الوحل ويُملأ بالزجاجات الساخنة والقش والحقائق والمسامير، ويعيش فى المنافى بين القطط والمزابل والخمارات الوضيعة والفنادق الرثة، ويقرأ الجرائد من براميل الكناسة، ويُعدم أكثر من مرة، ويعود ظافراً الى الجموع المبتهجة، وتحاصره النيران والمدرعات، ويخيل إليه إنه حى، ويشعر بسعادة مخيفة بين السواعد التى ترفعه، وفى الاحتفالات المشتعلة، يُهدى أخاخ بعض انتصاراته، وأخوه لا يكف عن إرسال النقود

والطعام والكلمات والألبسة وسلامات أهل الحى وقلوبهم وخزائنهم إليه .

فى الليل الذى لا يرحم، كانا يتبادلان قطع اللحم والحنين ، كان حديده يصبح قلباً، وعيونه تقذف حصى رطبه، واحلامه ترفرف عليها طيور المصائد الحرة، وتنبت تلك الإرتعاشة، فيخضع لغسيل فى بلاعات شرسة، ويبيع المسحوق الأبيض على الأطفال والسجناء، ويطلق الرصاصات الأخيرة على رؤوس الشهداء .

صارت تلك الإرتعاشة نبضاً ملعوناً فى دائرة أخيه . كان ضؤوها الأصفر يدوى ، وعدسات الرؤساء والأقمار الصناعية تحدق فيها برعب . عندما جاء إلى أخيه فى تلك المرة وجد بيتاً رائعاً ، امرأة وأطفالاً ومراجيح وكتباً وأصدقاء . راح الكون الصغير يتفكك .

رأى محمد عدسات وأضواء موجهة إلى سريره، ورجالاً غامضين يسلمونه إلى أشباح صرخات الهاتف تنفجر بأسئلة مخيفة، آلام حادة تندلع بعد كل وجبة .

يرسل جابر تقريراً موضوعياً إلى القيادة :

– أخى إنسان ساذج .. و .. طيب، وكل ما تتصورونه عنه خطأ غريب !

يُستدعى على عجل، وتنتزع أجزاء تالفه منه، وتركب صمامات ومسجلات جديدة ذات اتصال ضوئى، وتجرى اختبارات مكثفة لتحليل الإرتعاشة، ويُعاد إلى أخيه ..

الأصدقاء يتعرضون إلى زيارات وإختطافات مزعجة . يقبع محمد ونرجس وحدهما فى الاحتفالات . رؤوس ضخمة تحدق فى الظلام إليهما من وراء الزجاج .

يمضى جابر إلى سرير نرجس . هذا الجسد الجميل الباذخ كان يشتهيه دئماً . كان يمعن التحديق فى الوجه ويتحرق لتقبيله وعصره ، فوجئت، ارتعبت، تفجرت مياهها ودماؤها .

أحتجز محمد فى الحبس أشهراً طويلة . امتلأت الصحف بالعناوين المثيرة ، تطوع جابر للدفاع عنه كان وجهه المتصلب يطلق بخاراً وحزناً راح الجميع يمعن فى مزايا ذلك الإنسان الصغير الطيب، الذى غدا مهووساً واستمعوا من أخيه المحامى أساطير غريبة عنه :

محمد هو الذى كان يرسل البنادق ونحن نقاتل فى الجبال ، كل قطعة من جلدى هذا وضميرى مصنوعة من يده . أتذكر رسائله المشحونة بالأمل والحلوى ..

**(٣)**

يحضن جابر أخاه، يسافران معاً، يبعثرُ أشلاءه وذيوله، يسندهُ بألف سيف فى جسده، يقوده إلى فندق قمة جبل، يضع اجهزة تسجيل على ذاكرته وعينه، يضحكان، يرقصان، يستمتعان بثرثرة النساء ، يدخنان، يتدحرجان على الثلج، تقرأ لهن الصبايا عند صخرة البحر الأكف، يسأل جابر بغتة :

– هـل لـديك عملـة صـعبة، بقايـا روح، كهـوف غامـضة مـلأى بالخفافيش ، يجب ان تسلم كل شئ الى أمن المطار !

– أنظر .. أنظر يا أخى إلى جسدى، كله ثقوب !

– ولكن هنا .. أرى عصفوراً لم يمت بعد . وهنا لا تزال تحمل بعض النياشين ، ألم تغرقها ؟!

– هـذا شئ مـن دم نـرجس . عنـدما قتلوهـا كنـت اجـدف الى جزيـرة الطين . أحمل حروفاً ومسافرين، وجدتُ ابناءً ليسوا من دمى، وأخوة قتلونى، أحتضنتى نساء وصنعن أطفالاً من أشعارى ..

– كلهن ساحرات، عندما تجتثُ إحداهن يتدفق مطاط ..

– بـل دم وجنـون، كانـت رائحتـك هنـاك ، عنـدما أخـذوك أول مـرة بكيـت، أغلقـت النوافـذ وطـردت القمـر وتواريـت فى لحـاء الـشجر ، وحين صرت تنتقل بين أسلاك البرق والحارات دهشت وقلت أهذا أخى؟ لماذا أرتجف هلعاً كلما ضُرب الباب؟ لماذا أرتجف فى الظلام؟ لمـاذا هـو يعيش على ضـفاف المـدافع ولا يحـب الأطفـال والبـشر ولا يخاف إلا من كلاب الحى، وكلما سُجن طلع أكثر قسوة، أحاول أن أعانق شرارة من روحك فلا أصل إلا إلى الرماد، كانت رائحتك هناك فى ثـوب نـرجس .. أجـد الكتـب والرفـاق والنجـوم تختفـى، وتزدهـر الأشباح ..

– يا أخى .. لا تنطق بحرف آخر ..

– توحدت بالزواحف ، قميصى من عضاريفها ، وكلما توارى الناس من الحى كبرت صدفتى ، رحت أشك حتى فى أصابعى ، وأرى عينى فى المرآة تخبر عنى ، وأصيح كيف وصلوا إلى أحداقى !

– أسكت ! أسكت !

– كنت أقشر جلدى بحثاً عن الألغام والحشرات، أسبح فى زوايا عقلى، اغوص فى بطن زوجتى، أطبخ رؤوس أطفالى ولا تظهر قملة، حتى رأيت ظلك فى نفق الموت . رايت ذرات الرمل الأصفر التى يجلبها حذاؤك، سمعت الصرخات التى يفجرها حضورك، رأيت المختفين، والجثث الطافحة بعد العواصف، والاعترافات المفاجئة، والمداهمات السريعة، والأولاد اللذين شبوا على الإبر، والقصائد الميتة، والمهرجين اللذين ملأوا السطوح ..

يضربه جابر بقسوة، يهتزان فوق شريط الحبال المعلق بين الجبال ن وتحت البحر الصاخب ..

– كل شظية كنت أجمعها تنفجر فى وجهى ، جلدك الذى قلت إنه تمزق كان يتلألأ تحت المياه ، عيناك المقلوعتان كانتا كرتين من زجاج، وكل أترابك دفنوا وورثت زوجاتهم .. وعندما اغتصبت وقتلت نرجساً كنت تشرب البيرة بهدوء .. حتى نسفت كل شكوكى، كنتُ أضرب رأسى بكل هذا الحطام، وأجمع القطرات النادرة من شفاه المصلوبين ، والعظام الأخيرة التى بقيت بعد الحرائق، ويتشكل خيط رهيب من الذئاب التى سكنت كهفى ..

يتوقفان عن العراك، يتطلع محمد الى البحر الأزرق الفائر، ولأول مرة يراه جابر واضحاً وقوياً، نأى عن الإبر وزجاجات الحبوب والصرع والدموع، فيقول :

– كيف أمكنك أن تكون كل ذلك ؟!

غرز محمد فيه خنجره لأنه رآه يتحسس نتؤ فى جيبه ، يسمع صدىً معدنياً حاداً ، جسمه بلا ثقوب أو مياه ..

إرتعاشة أخيرة تتسرب من منجم الزجاج والدم ، صوت ضعيف طلع من تحت طبقات الفحم والعظام نسغ سرى نما فى نهر الجماجم شبح من الحديد أختلط بطيور الحى وأجنحة الصبية .. هناك كان يطير حراً ، ويمتلئ صندوق عجائبه بالهوى والبيض .

محمد يوقف رعشته، ويفتح تمثاله المجوف بالريش والتبن والمسامير ، ويلقيه عميقاً، إلى الهوة المضطربة ..

**(٤)**

هو ذا شبخ يطلُ عليه، يحدقُ من وراء الزجاج والقماش والحجر، يحسب شعيرات ورقة وجلده ، يقول هلال :

– ماذا تفعل يا محمد فى هذا الظلام ؟

# البركان

المسحوق الرمادى ينتشر فوق المدينة، يده التى تمتلئ البثور تؤلمه غلالة من الأشباح تحومُ مع النهار، لا يكاد يتنفس، يسحب الهواء من الفراغ والعدم .

الطرق على حالها دائماً، العمال المهاجرون يملؤون الدكاكين والأرصفة ، والمراهقون يلعبون بالإبر والورق وأعضاءهم ، النثار الرمادى كالمطر ، ثمة امرأة عجوز تصرخ (بركاتك يا شيخ نصار) ، سيارة تحاذية ويطل وجه بغترة وعقال ويحدق فيه بكراهية مؤلمة .

يدخلُ الصيدلية الملأى بالزجاجات المغّلفة ، يضع أصابعه على الزجاج ، يتمعنُ الصيدلىُ فيها ، يحضر زجاجة ويفتحها ، يحاول أن يستخرج المسحوق الترابى وينثره على يده!

يخرج الى الشارع الذى امتلأ بحشد من المجذومين والبرص والمعاقين ، يهتزون رقصاً وغناءً وبكاءً، يلتقطون المسحوق البركانى، ويمسحونه على وجوههم وأذرعهم وأرجلهم وملامحهم الباقية ...

حينما تأخذه الفراشات المحترقة الى روحه ويهبط الحزنُ مثل الأظافر ، وينسى إن الأشجار تنمو قوية بعد الحمم ، وإن الجروح تشتعل نوراً ، يغرق فى حانة بائسة يمزق فيها التاريخ والوجوه والحضور ، فيُحذف بالسواعد القوية للحراس ..

يمضى عند الضحى إلى عمله فى ( المؤسسة العامة للشيخ نصار) ، الشمس وراء عباءة من الرماد، والطرق مرسومة بأنفاس النار ، والموظفين غارقون فى الكلمات المتقاطعة والأبراج والنجوم، وكلمات الصحف الكبيرة الحمراء تعلن عن أمطار ونقل غابات من أفريقيا وثلوج .. يداه ملتهبتان ن وبدأ جلد كاو فى التساقط ن تحدقُ فيه الموظفة الجميلة بألم وتخرج من حقيبتها ورقة لوز مربوطة، فيها ملح مخلوط بحصى بركانى :

– سوف يشفيك ..

– ألا تخرجين معى ؟

– مستحيل .. إلا إذا وضعت هذا الدواء على يديك !

يخرج إلى الشارع المزدحم إشارات ضوء، سيارات حاشدة ، عادم أسود يلتصق بالرماد فى طين لزج ملتهب، الجلود تنز ناراً وفحماً وأدعية . عباءات سوداء قاتمة وراقصات شبه عاريات، يحدق فى الحشد المتقارب عند المقهى رؤوساً ولحى ونارجيلات . يقترب، العرق يتصبب منه، يطلب كأس شاى، مرت سحابة كبيرة من الرصاص،

امتلأت الكؤوس بأنفاس الشيطان والبركان . تساقطت ذبابات ، رفعوا الكؤوس وشربوها بنشوة، صاح شاب : بركاتك يا شيخ نصار!

لم يرفع كأسه ويشربه، حدقوا فيه غاضبين، نهض بهدوء ، قال :

– أود أن أعرف من هو هذا الشيخ نصار؟ ماذا فعل لكم؟ انتم تعيشون اسوأ من الحمير ، أنظروا إلى المدن التى حولكم : حدائق غناء وانهار صناعية .. وانتم تعيشون فى زرائب ..

لم يستطيع أن يكمل خطبته التى بدت له إنها ستكون طويلة ومقنعة تماماً ، جاءته لكمات رهيبة ونعال صلدة قاسية ثم حضرت المليشيا الشعبية واقتادته إلى إحدى قلاعها .

حين خرج بعد سنوات كانت المرئيات مختلفة ، كان الرذاذ البركانى لا يزال يغمر الوجوه، وبدا الناس المجذومون والمقعدون مختلفين.

فى الليل الملئ بالمعنى فى القلعة رأى الشيخ نصار وثلته وهم يزحفون نحو البركان ، الذى كانت تنبعث منه الشواظ والغازات السامة، ثلة غريبة تكونت من الروح، احترقت أيديها وهى تزحف، تساقط نفر منها كأعواد مشتعلة، تستروا بحصى هائل، جاءت طيور ومياه من السماء، تساقطت تلال من الرمل والأسى، نزل الشيخُ نصار سحابة من الأمطار فى قعر البركان، وخمدت النار.

راح يكتب : إن كل الملاحم التى كُتبت عنه لم تصل لب المعجزة . كل هذه الجبال من الأوراق والأشرطة والأفلام لم تستطع أن

ترى النور . وهو فى هيمنته وبخوره وصلواته كانت تأتيه أطياف شتى، الأزقة الممتلئة بالروث والأناشيد، العباءات الكبرى من ثانى أكسيد الكربون، الأطفال اللذين يلقون فى الهوة عسى البركان أن يهدأ، وهو لا يهدأ، والأرض لا تزال تختض وتتقيأ، والرذاذ فى شاى الصباح ووضوء المساء، وأشرطة الشيخ نصار لا تقتل ذبابة عن وجه طفل ضرير، والمدينة تغوص فى الارض، وتتشقق وتظهر عروق من النار وأبخرة سامة، وحرائق غامضة فى الأكواخ، وتتكسر الأشجار العملاقة بجلجلة عظيمة ..

يهذى ، يدهُ تمتلئ بالبثور ثانية ، يتطلع إلى اشباح كثيرة تنسل منه، يصرخ : الشيخ نصار كذبة كبرى فى حياة هذه المدينة، يكسر أسطوانة على رأسه، أسكت، أسكت، الرجل ضحى بنفسه، ماذا فعلت انت غير ان ثرت قليلاً، إنه رجل مغمور طلع من قمح الأرض وأسكت الوحش فى الأعماق، الآن كل الحصالات تتغذى من تمائمه!

يمشى قرب نهر الصديد والرماد، سجادة صفراء تنبعث منها الأدخنة والأبخرة، أمهات يضمن أطفالهن المشوهين فى مائه المشتعل، ويسحبن لحماً مشوياً صارخاً، هياكل عظمية تتبخر فى فحيح البركان، فتيات يشتعلن فى صديده الفسفورى الحامض، ويرى سحابات من الأشباح والتعاويذ والبكاء تطير فوق مسرحه الهائل !

وهو يأخذ صبية من المقطوعين، وأضلاعاً أخيرة باقية من الصبايا، ويسحب من بعض الشيوخ حكمة، ومن الأطفال حماساً،

ومن الرياح صلابة ، يصعدُ نحو البركان، الأرض تعوى متشققة، والحممُ تبقبق وتغلى صاعدة نحو الفوهة الهائلة ، ولم يفعل الشيخ نصار شيئاً، فلم يكن فى الهوة صخور، ولا تلال مقطوعةُ ملقاة بأجنحة النسور، ولا شئ سوى الهوى الهائلة الفاغرة أفواهها لا بتلاع السماء والنجوم !

الأرض تتمزق، وأخاديد عظيمة تتفعى، والحمم تحتفل بالموت، وانهار النار تضم الشجر والقطعان، وهو يمضى مع حشده الصغير وصخوره ومياهه نحو الهوة الكبرى للجحيم!

# سيد الضريح

## (١)

كان الليل شديد البرودة، فامتلأ الضريح بالبشر . أجساد متلاصقة ، أطفال وشيوخ، نساء ورجال، وهم شبه عراة ، تبدو جلودهم وهى تنتفض من وراء القماش الرقيق، محشورون فى القاعة البلاطية العارية ، والضريح بقبته الكبيرة يحدق بهم ، بأطره الذهبية الواسعة ، وعيونه الخرزية الكثيفة الكثيرة، يتطلع إليهم وثمة روح تزيح ما علق بالقبة من مياه عميقة متكلسة، ومن طين الأرض الذى أتحد بذهبها اللامع ، ومن جذور ونذور ..

بغتة تنشق القبة، المعدن الصلب أنصهر أولاً، وأخذت الأحجار التى تكلست منذ قرون تتصدع ، وانهارت كتلة ضخمة من الوسط، وأحدثت دوياً هائلاً ، ومن الغبار والعتمة والنار ظهر كهل تطلع بخوف إلى زواره المتكدسين خائفاً من إيقاظهم وإزعاجهم، غير أن أحداً لم يستيقظ .

تطلع إلى القبة بذهول، حدق فى السقوف الواسعة اللامعة، وفى الأعمدة الهائلة ، والسجاد الباذخ، نزل بهدوء وغياب وحزن، أخذ شيئاً من الذهب المتناثر واللؤلؤ المتساقط، ووضعه فى أيدى الناس النائمين، غير ان قبضاتهم كانت مفتوحة لا تمسك، معدناً اوهواءً ..

صاح طفل قرب قدمه، مضغة صغيرة من لحم متوار وعظم بارز، وامسك نعله وتطلع الى وجهه، فأعطاه كرة من ذهب، فلم يأخذها، تلف الكهل إلى كل الجهات، وطلب شيئاً، لكنه رأى يديه فارغتين . سار بانزعاج وألم وغضب، فمشى بصعوبة بين النائمين، وصاح أحدهم شاتماً هذا السير المزعج ، وأمسك آخر ساقه وغرز أظافره فيها ، فذهل من الألم العميق الحقيقى .

حين وصل الى البوابة لم يبق من أنفاسه سوى القليل .

كان الشارع المعتم البارد ينفجرُ فيه دوىُ السيارات المندفعة المارقة، حدق فى الأجساد الحديدية الضوئية بذهول، سمع كلاماً وراءه ثم أمسك أحدهم كتفه، ألتفت فوجد إنساناً ذا ملابس غريبة، ثمة قطع حديدية على كتفه، وهو رجل بالتأكيد من هذه الشوارب الكثيفة، الآخر يحدق فيه كذلك باندهاش، يقول :

– ماذا تفعل يا سيد هنا ؟ ما هذه الملابس العجيبة، هل تُمثل، ولكننى لا أرى آلات تصوير ؟

قال الكهل :

– لقد خرجتُ تواً من المسجد ، كنت ألوذ بضريحى طويلاً، ولكننى ما عدتُ قادراً على الصبر ..

دبت ضجة ما فى الضريح، ثم حدث هرج شديد، فأندفع الرجل إلى الداخل، وسمعه يصرخ، فلحق به، ورآه يتحدث فى شئ صغير اسود، ووراءه كان الناس، أولئك اللذين رآهم نياماً فى هدوء، يتعاركون ويتنازعون القطع الصفراء ..

## (٢)

فى العتمة الطويلة فى الضريح كان يصغى إلى الأنين ، إلى النهر الصاخب من الدموع، كتل من العظم الأنثوى الذى تُغرز فيه الحممُ ، قطع من أكباد الأطفال تُشوى تحت أنفه، ولا تستطيع سحبُ البخور أن تدهس رائحة اللحم البشرى المحروق، وهو يصرخ : أبعدوا هؤلاء الأطفال، لم أعد احتمل ! وأثداء النسوة التى تُغرز فيها السجائر والأسنان والإبر وتعرض فى حدقة عينه ، ويصيح : هل تحسبوننى إلهاً؟ أنا رجل فقير جئت من الصحراء بقبيلتى، ضاقت علينا رمالها، فانحدرنا بين الطعوس واللصوص والذئاب، وسكنا هذا الشاطئ، الممتلئ وقتذاك بتلال الحصى وأنشأنا قرية .. ولا أعرف كيف سجنتمونى بين هذه الجدران ورحتم تتضرعون إلىّ، وكأننى ساحر أحكُ خرزة فتحدث الأعاجيب ..

كانت تصفعه رياح باردة ، وثمة طريق صغير مبلط يمشى عليه المارة، سار هو عليه أيضاً ، ولكن ملابسه الرقيقة لم تسعفه، ويرى بعضاً من الناس متدثرين بملابس ثقيلة غريبة، ويتطلعون إليه ويبتسمون، فوقف عند دكان واجهته من زجاج، وثمة قراطيس كثيرة فى الوراء، دخل طلباً للدفء، وراح يرتجف بلا إرادة منه .

لا تزال أصوات الناس من وراء الجدار تصب فى أذنه رصاصاً مشتعلاً، حضر كل الجنازات الصعبة ، وشارك فى الحروب المريرة، فيمتلئ كهفه بالدم والدموع والأسمال والأرواح المعذبة المطاردة وجثث البحارة الغرقى والعمال المحروقين فى تنانير جديدة لم يرها، فيحتمل كل شئ سوى أجساد الأطفال الغضة التى تُحشر قرب قدميه مشوهة بالفحم وأسنان الحديد، فينفجر رأسه بكوابيس، ويتمنى الموت، يبكى من هذا الخلود فى حمم البشر، يسبح فى برك من الأعضاء والعيون إلى ما لا نهاية له من اللحم والنار، ويضرب على الجدار لكى يرحموه، ولعل أحداً يصغى إليه، لعلهم لمرة واحدة يسمعونه، لكن الأصوات التى كانت تأتى كلها مصهورة بالألم، ويهمس لرجل ذى صوت قوى ويقول : أننى بحاجة إلى مساعدتك، أنا تعب جداً، نومى كله كوابيس، لا أستطيع أن أذوق الزاد، وكل هذا الطعام الذى تقدمونه إلىّ يصيب روحى بغص شديد، وهذه القطع من النقود التى تنهالُ علىّ ليل ونهار تصبح حيات فى ملابسى وأعضائى، أرجوك يا رجل،

أنت تبدو قوياً ومتفهماً، أرجوك هدّ هذا الضريح علىّ، دعنى أموت ولو لمرة واحدة .. لكن الرجال يهتز فرحاً وأسمع صرخاته ..

يقتربُ منه رجل كان يجلس وراء طاولة المكتبة، يسأله :

– هل تريدُ شيئاً يا سيد ؟

رأى كتاباً عنه، راح يتصفحه بلهفة ، أبتسم صاحب المكتبة بسخرية، قرأ عن شخص كأنه لا يعرفه، رأى ذاته وهى أخرى ، دهش من حشود الأكاذيب، طفولته التى عانى فيها كثيراً من رعى الغنم وضرب الأولاد والبرد والجوع تصير أناشيد وصلوات بين الأضواء والتلال، وجلده الذى أهترأ من عصى المعلمين والجرب صار مدهوناً بمعجون سماوى، وشهواته الفظيعة التى كانت تؤرقة وتضنيه وتجلعه يكذب ويخدع تغدو حناناً للنساء ورحمة بالأرامل، ومسيرته فى الصحراء يقود جموعاً مهلهلة نازقة تخاف الذئاب والأشباح، وتأكل الضببة، ويحولها إلى مردة تتسلق الحصون وتكسر أقفال غلال الحبوب وتوزعها على الناس ، كلها توارت وذابت فى ابتهالات وصلوات وصنع مسابيح من البخور والكلمات، صاح برعب :

– ماذا فعلوا بى ؟!

**(٣)**

قال لنفسه والرياح تعصف، والمطر المدرار يتساقط بشدة، ويصفع الرصيف، وثيابه الغريبة تبتل، وتتفكك خيوطها :

– ماذا فعلت بنفسك ؟ لا سكن ولا طعام ولا لباس، عار كذاتك، كروحك المباعة عبر القرون، كإسمك الخرقة التى تُعصر فى أفواه المرضى والمجانين عسى أن يقطعوا مراسلاتهم مع الأصوات، ألم يكن التدلى فوق هرم من الناس والثروات، والخلود بين خدود النساء ألذ؟كنت فى العزلة الحجرية ملكاً والآن عليك أن تبحث عن كسرة خبز.

صرخ فى البرق الشرس المنهل على وجهه :

– أفضلُ ان تسحقنى مركبة من مركباتهم الحديدية على أن أذوب أمام جسد طفل !

وهو محبوس بين الجدران والظلمات كان يتعفن، وينشره الحزن، والآن يعود للحرية، ويشعر بطاقة عظيمة قادرة على الفعل وانفتاح كبير على الفرح .

أبتعد عن المطر الصاخب ، ووقف تحت عمارة كبيرة، ورأى سلعاً غريبة وراء الزجاج، ولحماً مشوياً ككرة تتقطر دهناً وروائح شهية، وأناساً قابعين رواء الطاولات وأمامهم علب كثيرة وهو يصرخون ويدخنون ويتعاركون، وكانت الباصات المشحونة تقذف بشراً كالنمل فى الميدان، وتطلق سحابات من دخان موجع، وتدفق الصمت والفراغ فجأة، ونزل رجال بملابس متشابهة يصفرون ويحدقون بأضواء طويلة حادة، ويجرون المارة الى سيارات، ويضربون بعصى قوية، ووجد نفسه يتسلل إلى أزقة كجحور الفئران والأرانب، وقد امتلأت بمياه المطر، ووجد المسجد مغلقاً، فقفز جداره الرفيع، وجثم فى المنارة المتعرجة،

وجسده متلو متألم، ولكن يحس براحة غريبة، لعلها من نثيث المطر الذى غدا هادئاً، ولطعم الحرية ..

لكن فوق رأسه حام طائر معدنى غريب، فيه عيون وخراطيم من الضؤ، وكانت تخترق المنارة والكوة التى كان يحدق منها ..

## (٤)

قال الشرطى للثلة التى جلست حول مائد :

– لقد رأيت الرجل أيها السادة . لم أعره انتباهاً كبيراً وقتذاك .. وقال انه خرج من الضريح .. ولكننى حسبته يقصد المكان ، ودخلت فرأيت شجاراً عارماً حول القطع الذهبية التى تناثرت .. وقد أدليت بكل أوصاف الرجل، الذى تقولون إنه الشيخ نفسه . وقد عمل الرسام لوحة مطابقة لوجهه، ولكن ثمة ملامح تهرب من ريشته، فالصورة المرسومة تنطق على آلاف الوجوه، فكيف سنعثر عليه ؟!

قال كهل يلبس نظارة طبية :

– حتى ولو عثرنا عليه، فكل التقارير تشير إلى أن الشيخ سيد الضريح يشعر باكتئاب شديد، ولا شك انه سيكرر المحاولة ويفجر المكان، فالمشكلة أعمق من إمساكه ..

قال ضابط شرطة بقلق :

– العثور عليه أمر مهم، ليس لأنه خرج من مقره الرسمى بلا أخطار ولا طلب من أى نوع، بل لأنه يمتلك قوة كبيرة تهدد الأمن، فلو أنه

استخدمها، قائداً مجموعة من الناس، فلا شئ يمكن أن يكون هادئاً فى الدولة .. كذلك هناك أنباء عن حدوث أشياء مشابهة فى أصرخة أخرى، فلو أننا لم نتحرك ونجابه الموقف بحسم فلا نعرف ماذا سيحدث غداً ..

انبرى شاب يلبس نظارة للحديث :

– القضية أعقد من هذه الآراء، فالشيخ هو مانعة للصواعق تجذب كل الدموع والآمال والشرارات، فإذا اختفى أين يذهب الناس ؟ أين سيحلمون بغد افضل ؟ إن أخى عندما علم بإختفاء سيد الضريح صار كالمجنون، ورايته يسن السكاكين ويتوعد ..

وغمغم الحاضرون معاً وقالوا :

– لابد من إيجاده فى أسرع وقت ..

## (٥)

جثم سيدُ الضريح فى زاوية المسجد مستمتعاً بضوء الشتاء، وبالأطباق الصغيرة اللذيذة من المساكين . والخبز ليس هو الذى يشعله، بل هذه القلوب الوردية، التى ما أن تفتح حتى تتدفق شرايين الكلام والحب والألم .وهو مذهول إن كل هذه الشقوق من الحجر تنزف وتزعرد بالفرح، لكنهم لا يعرفونه تماماً، هو مرمى فى قعر نفوسهم، غريقاً وحياً ومذبوحاً ، وهو يلمسهم ويمضى الى خرائط جراحهم، لكنهم لا يعرفونه تماماً .

جاء وقت الصلاة والكلام، وأنطلق خطيب متحدثاً عن اختفاء سيد الضريح فقال :

– لماذا يتمسك بعض الناس بالحصى التى لا تنفع ولا تضر، ويتبركون بأشخاص من البشر وهاكم سيد الضريح هذا الذى زعموا انه حى، فحدث زلزال وأنكشف، فى هو حى ولا موجود، ولا هارب مطلوب، وإنما هو وهم معدوم ..

غمغم الناسُ ونهضوا للخطيب وانتزعوا الميكروفون من يده ، فراح يلعن . قام سيد الضريح وتقدم برفق بين جسد الحشد الساخن، وقال والرجال يتطعلون فيه بدهشة :

– أيها الأخوان إننى لم أطلب أن أوضع فى مثل هذا التابوت ، بل لقد عشت طويلاً بين هذه الأحجار متألماً ، والمياه التى دفقتها فى هذه الأرض جفت ، والكنوز اختفت ، والآن ..

واندفعت فى وجهه أكف ، وأخذته سواعد إلى الأرض والدم.

## (٦)

اجتمعت الثلة وراء الطاولة . قال الضابط بأسى :

– رغم الإعلانات الوفيرة والمداهمات والاعترافات إلا أننا لم نعثر عليه، وتم اعتقال كثيرين زعموا إنهم سادة الضريح ، ويا للدهشة فجميعهم تنطبق عليهم مواصفاته ، ولكى تتأكد من مزاعمهم تركناهم فى أماكن مغلقة لبضعة أيام فماتوا كلهم ..

قال الشابُ العالم :

– البلاغات عن هذه الادعاءات لا تتوقف، ولدينا الآن بضعة آلاف من الأشخاص، وكلهم يجتازون اختبار فحص الكذب بنجاح ، ولكن فحص الموت لا يتم اجتيازه، والبلد كلها فى حالة جنون جماعى ..

قال الكهل :

– وأغرب الحالات التى عثرنا عليها بعد اشتباك فى مسجد ، حيث خطب أحدهم زاعماً إنه هو سيد الضريح، هذا الرجل لم يجتز اختبار الكذب بنجاح .

قال الضابط بتصميم :

– الحل المقترح الآن بعد الفوضى العارمة التى حدثت، هو أن نقوم بإدخال هذا الرجل الضريخ، ونعيد بناءه كما كان، وسنقول للجميع إننا عثرنا على السيد، وسيتغير كل شئ بعدئذ ..

قال الشاب العالم :

– وفى هذه الحالة علينا أن نبحث عن سيد الضريخ طويلاً الذى ربنا ذاب بين الناس !

# وتر فى الليل المقطوع

## (١)

وضع الحصير فى الحوش، جلب عوده وجلس، بوردة الليل الربيعية تتسرب إلى نفسه . ينتعشُ ويرتعش ويعزف، يقول الوترُ : لتكن ليلة مباركة ! تئن الأوتار بين قلبه ويده، وهى تتذكرُ الدروب المعتمة، و الحمام الذى لا شكل له، وروائح المرأة غير المرئية، وضجيج البحر ..

منذ أن ألقى فى العالم وهو يتلمس الأشياء، يحبو فى الحوش، و يفتح الباب ويمشى فى الحى، ممسكاً الجدران، ويروح يتلمس البيوت، كلُ الأبواب والجدران متشابهة، خط طويل من المنازل، وكأنها صف من العساكر المشدودى الأجساد، لكنه يلمس الفروق بينهما، ويدرك إنه وصل إلى بيت البائعة حصة، أو تجاوز بيت على الناطور ..

يسمع خطوات أمه تقترب ، تقول :

– ألا تريد شيئاً ؟

– كلا .

– هل ستخرج الليلة؟

– نعم قال لى فضل إننى سأغنى فى حفلة كبيرة .

– تشرب الخمر! لا تغنى لهم كثيراً ، عندما تأتى فى كل فجر يكون صوتك مشلولاً ن لا اريد أن أفقد صوتك أيضاً ..

– أنت تعرفين إننى لا أشرب ولا أدخن ..

– لا تسطيع أن تنظف غرفتك تماماً ، هناك دائماً علب فى الزوايا .. يا للروائح الفظيعة ، كيف تطيقون هذه الأشياء !

أمة مسكونة بالمخاوف والقلق، كثيراً ما سمعها تتكلم لوحدها ساعات طويلة . حين يباغتها تدعى إن إحدى الجارات كانت معها، لديها مراسلاتها الدائمة مع أزواجها السابقين، كان أفضلهم هلال الذى يظل صامتاً دائماً ، وينهض منذ الصباح ليقفز إلى اللورى، ويأتى فى المساء فى سحابة من الأسمنت، ويسمعه وهو يغتسل ويزيل الأوساخ . دون أن يدندن، أو يتأوه بموال بحوى ما، ويشم رائحة دخانه النفاذه، وفى الأحوال النادرة التى ينطق فيها يسمعه يتكلم عن " العبيد "، عن سلاسل غامضة من البشر، جاءت من أفريقيا ونشرت الرقص والغناء . وفى إحدى الصباحات لم ينهض خلال من رقدته، ظلّ على سريره، وحين صرخت أمه، وتحسس جسده، ذهل من قامته الشامخة، وعضلاته القوية المنتشرة فى كل مكان، وأستغرب كيف يمكن لهذا الرجل أن يموت بهذه البساطة والهدوء ؟! وفى الساعات التى تحدثه

أمه عن عمه السابق، لا يسمع أيضاً صوته ن أيكون حقاً هناك، أيكون جائماً قربهاً ، ويجلس مسترخياً ومُصغياً، دون أن يدخن ؟!

يشمُ رائحة طبق الفول يجلس قربه، ولابد ان يكون الشاى معه يتحسس بيده، فيجدُ الخبزّ الساخن أيضاً، تقول :

– لماذا فضل دائماً؟ إن يريد سرقة بيتنا، ربما سكرت فوضع إصبعك على ورقة ما، كم أحتال على الكثيرين وسرق بيوتهم، تعرف كيف سرق بيت المؤذن يعقوب ..؟

– ولكن لماذا الخبز الحار .. قلت لك لا تتعبين نفسك !

– لقد خدعه واشترى بيته بثمن بخس، ثم أقام عمارة مكانه سدتت النور علينا ..

– لم ألحظ غياب النور ..

يذوق الشاى بمهل . أحياناً يأتيه النور فى لسعات خاطفة، مثل ضربات مشتعلة فى الظلام، أو نوارس تصفق، كما لو أن عود كبريت يقترب من وجهه، أو تنوراً ينفتح .. سئم الغلاف الأسود، سئم هذا الرماد والفحم المنتشر فى ورحه، كان زوج أمه الأول الشرير يضحك على عماه، حالما يمسكُ شيئاً ساخناً ويسقط، أوحين يصطدم بالأعمدة والأبواب . كم كانت تلك الضحكات تنشره، وتنثره وتحبسه فى الغرفة، يسمع صخب الأولاد ولعبهم بالكرة، وفرحهم بالأهداف، فيمسكُ الجدار ويتحسس طريقه إليهم، وكانت المباراة

تقام بين صفين من البيوت، فيدخل المباراة ويضع الكرة فى قدمه ويمسك الجدار ويتقدم مثل صخرة عاتية إلى الهدف .

إن جسمه قوى وضخم، وصوته رقيق ومؤثر، وهو حين يمسك العود ويصب الأغانى فى قلوب السامعين، يدهش منه، ولكن لا صوت نسائى يقترب، ولا زفة من حنان تبل صدره . حين يمسك ملامح وجهه، يدرك كم هى متنافرة، فهذا الأنف الضخم، واسع المنخرين، وهذان خدان غائران ، وليس ثمة شعر يظهر تحت الأنف فيخفف عن غلوائه، وهذه عظام ناتئة ترسم الوجه كله فلابد أن يخيف أى امرأة .

فى أيام لعبة لكرة القدم ، كان الأولاد يأخذونه إلى بقعة بيوت السعف، ويصفون له كل شئ : الرجال المتجمعون عند الأبواب، النسوة المتجمعات فى إحدى الغرف، ويسمع واحدة تسخر :

– حتى العميان صاورا زبائن لنا ن يا للحظ !

صار جلده مدبوغاً بغضاريف التماسيح، فى يأبه لغمزات النسوان، أو قشور اللوز التى ترمى فى وجهه، وأصبح يعرف من القادم، أو إذا كان أحدهم يسخر منه فيحرك يده فى وجهه، وقد عض أصبع أحد المتلاعبين وكان درساً بليغاً للتافهين .

سمع عجلات سيارة تتوقف قرب البيت، وبوق قوى يدعوه . إذن هو الحفل والمبلغ والعلب الممتعة ونزيف القلب !

أخذ عودة وقام . خطوات أمه وراءه، فتحت الباب قبله، وخاطبت فضلاً وهو جالس فى مقعده، وقد أنزل الزجاج وراح يدخن ويتمعن فى بيوت الحى :

– لا تتعبوا أبنى كثيراً يا فضل ، دعه يأتى مبكراً ..

– إن فرحان فى عيوننا !

مشى بحذر الى السيارة، ودار حولها، ووضع العود فى المقعد الخلفى، وجلس فى المقعد الأمامى، وهو يدرك إن أمه لم تغلق الباب بعد، ولا تزال تحدق فيه وكأنه فرخ، وهو تعب من كل هذا الأهتمام، وشعر بالراحة والسيارة تندفع فى زحام المدينة، وليلة الجمعة حافلة بالحشود، ويشعر بجسم فضل الضخم وهو يكاد يتنفس ويزفر بطريقة غريبة، كأن احداً يضغط على صدره، ويسبح بصعوبة فى مياه الدخان، كما كان زوج أمه هلال، له زفير غريب يقلقل الليل، وفى جنازته سمعهم يتحدثون عن الأسمنت والنوره، كانوا يضعون أكياس ورق على رؤوسهم ويحمّلون، وها هى ضجة المدينة تخفت قليلاً، وتقل الوقفات عند إشارات المرور، وتندفع السيارة ..

قال فضل :

– ستكون حفلة عارمة، أبحث لك عن وليف !

ولعله الآن يبتسم، يعلم أنفاس اللغة، وعند كلمة وليف إنفرجت شفتاه ولا شك، وظهرت خطوط مسترخية فى وجهه . يشعر باللغة والعواطف فى تبدلات الهواء وأصوات الأشياء، ويدرك كم هؤلاء

البشر محدودون فى مشاعرهم وأفكارهم ، ويستطيع بسهولة أن يلتقط دواخلهم ، فيقولون إنه ساحر، إنه مثل أمه ، أمه المريضة من موت الأزواج الدائم ! تقول فى حواراتها معهم إنهم متقولون بالتعاويذ الشيطانية، فهلال جسمه ملئ بالمسك والعنبر، وقد غارت نساء الحى منها، وعملن له عملاً أودى بحياته فى عز شبابه . تصيح وتعول: لم يكن يؤذى حتى النمل !

بدا له أن السيارة تنطلق فى شوارع خالية تماماً ، ثمة هدوء شامل فى المكان، وبرودة تتسرب من نخيل وجداول . سمع نقيق ضفادع ونداءات جنادب شبقة .

كيف يبدو الليل فى الريف؟ هل القمر كبير فى السماء؟ وكيف تتشكل النجوم فوق قمم النخيل ؟ لو أنه قال لفضل : صف لى المكان والأعالى لضحك عليه، هو رجل مريض، يندفع فمه دائماص للإبتسام سخرية من كل شئ، لا يتحدث جاداً إلا عن النقود، لا يدرى به إلا حين يحتاجه، وحين سأل هو عنه مرة بإشتياق، ذهل، وبادر إلى القول بأن الحفلات إنعدمت وهو ليس معه سيولة..

## (٢)

توقفت السيارة عند أريج عطر لمكان، وفتح باب بالتليفون والأزرار، ومشت السيارة فى ممر تحفُ به الأشجار، تبدو أشجار تين ولوز ، ثم جاءت أصواتُ ضجة من بعيد، وهدير ماء يصبُ فى بركة .

يقوده فضل الى الجمع، يرهف السمع الى الأصوات الحاشدة، ثمة رائحة شواء، هو خروف وقع ضحية لهؤلاء، الضجة لا تخبو إلا قليلاً، فضل يقول :

– لقد أحضرت لكم مطرباً رائعاً ، يحفظ كل الأغنيات المشهورة ..

يسمع دبيب همس بعيد :

– أفضل ما فيه إنه أعمى !

– هنيئاً للمحصنات !

يضحكون لأى كلام، كأن أحداً يدغدغهم جميعاً . تقترب منه رائحة نسائية متواضعة، كؤوس دانية ومضطربة، يأخذ علبة، وثمة ثلة تقترب منه، وامرأة ورجل يثرثران ويضحكان :

أيها الكهل المراوغ ، لا فائدة منك أبداً، كم مرة وعدتنى ..

– لا أستطيع، زوجتى شريكة لى فى أعمالى، سوف ينهار كل شئ!

– إذن لا تقترب منى ..

يمضى فى دندنته، ينشر الأغانى المحفوظة، التى تحرك الجمع وتجعله يتأوه ويرقص ويثرثر وينسى لم يستطع عزفه أن يقرب أزواج أمه منه ، كان أول عود مصنوع من علبة تنك وعليها اوتار، وكم عزف قربهم دون أن يتأثروا .

يغيبُ عن الناس، فلا الظلال ولا الأصوات ولا الأصوات ولا الروائح معه، يحكى الوتر وحدته، أنينه الطويل فى الفراش ، والملاعب

التى لا يستطيع أن يمسك فيها جداراً الآن ، وأمه سرب الحمام الذى يحيطه ، والحى الذى خلا من الأصدقاء وجاء الغرباء من كل مكان .

يمضى الوتر يشق صدره ويلقى بقطع روحه المضرجة والمفتتنة فى الحوش وفى البركة الصامتة، ويمد يده يمدها لصبية من وراء الجدار، من داخل التنور، فيشعر باللسع ..

يرهف السمع الى الهدوء الذى أنسن الحشد، فلا مضغ، ولاتأوهات، ماذا حدث هل إستساغوا هذا العزف المرير؟ ثمة صوت هامس بعيد يمزقة :

- أى مغن ممل هذا ؟!

وينتشر صمت آخر مريب، وثمة دغدغة حسية فى الجمع، وكأن الأمعاء تحولت الى طبول، وهنا رائحة غريبة عطنة تقترب، وبدأ الهمس يصيرُ ضحكاً مكتوماً، وأخذت الرائحة تصيبه بالغثيان، وأدرك إن ثمة رجلاً يقترب منه، وأن الجمع يراقبه، وهو مشدود الأعصاب إلى حركات الرجل، وإن المتقدم يسخر منه، وأنفجرت ضحكات وحيدة لم تصمد لطرافة المشهد المتصاعد، وعرف بأن الرجل يقوم بحركات مشيتة، فتصاعد فيه غضبٌ عنيفٌ ، وكأن طبولاً من الأدغال تشعله، وكل هذا الظلام يصير حراباً فى عينه فأطبق بأسنانه على جسم المتلاعب..

كان صراخ الكهل، وفيضُ الدم، وصيحات الحضور وصرخاتهم العنيفة وضحكاتهم، وامرأة مثل النمرة انقضت عليه وعضت أذنه بحدة، ويسمعها تصرخ وهو يلقيها من فوقه كالقطة :

– ذبحتنى أيها الأعمى !

## (٣)

يدندن على العود، الذى لم يعد يستجيب له، ويطربه . مضت شهور غريبة قضاها فى السجن . لم يشهد أحد من الموجودين إن الكهل كان يسخر منه، حتى فضل أنكر، وقال إنه أعمى ويتوهم . كل شئ لم يعد يستجيب له . كانوا فى السجن يغنون، ويعزفون على أعواد من التنك، وأزداد ازدحاماً، والغرباء صاروا جيراناً، وغدا الجيب فارغاً . أمه لم تعد كما كانت، أصبحت تمشى ببطء وتسعل وتكثر من الأحاديث مع أزواجها السابقين، وكأنه يسمع هلالاً يتكلم معها، كم إشتاق إليه ! راح مرة يزحف ببطء نحو غرفة أمه، وأصغى الى أصوات غريبة، ثمة هينمة وهمس، أيكون ما يتخيله حقيقياً، أم هو قد بدأ يفقد عقله؟!

يدهش من فضل الذى أخذ يزوره مراراً، يعتذر كثيراً عن خذلاته، كان يقول : أولئك كلهم كبار وتجارتى وأعمالى معهم، أتريدنى أن أشهد إنه كان يسخر منك ؟ ولماذا تفعل ذلك، وبالأسنان؟! فى سجنه كان يمر على أمه ويأتى بها الى مواعيد الزيارة،

وكانت تناكفه . هى الوحيدة التى كانت تخترق وحدته، وتدس الطعام فى فمه . وزعم السجناء إن شبحها، بعباءتها السوداء، كان يحون حول المبنى ، أرهقه هذا الحب . وتراكم الحصى والطين فى نفسه، طبقات من الشكوك والخوف من الهواء والأصابع والهمس والضحك، ويدهش كيف كان فى فتوته يقود الدراجة ويلعب الكرة ويذهب للتعلم ويضع أصابعه مكان عينه، ويقرأ ويتوغل فى المدن والغابات والحكايات، والآن لا يطبق شيئاً . كان مذاق الدم كريهاً، ولا يزال يحجز طعم الخبز والورد .

قالت أمه :

– كيف ستعيش يا فرحان، ليس فى البيت شئ، لماذا لا تذهب للحفلات؟ لماذا لا تغنى، طوال اليوم انت جالس فى فراشك، وحتى الراديو أغلقته ..

بعد أيام أحس بلمسه جديدة فى البيت . هتف فى ورحه : فى بيتنا عطر! كانت مكنسة من القش تزيل البقايا، وتجعل الحوش الترابى مبلولاً ومزروعاً، والفتاة الخادمة تدخل غرفته، وترتب ثيابه، وتجلب أكله ، ويرهف الى صوت ناعم، والى ثرثرة محببة، ولا يقول لأمه من أين هذه المصاريف، بل يمسك العود ويدندن، ويتذكر لماذا كان السجن كريهاً، وهؤلاء الرجال يحيطون به، وتلك الأنفاس والمضمضات الطويلة والزغاريد الذكورية المفزعة ومعزوفات الشخير، ويدرك الآن إنه لم يعرف المرأة، لم تلفحه هذه النسمة، ولماذا كان صخراً متحركاً،

وعاجزاً عن الغناء الطالع من القلب ، ولماذا تراسل امه أزواجها السابقين ، عبر الموت والحياة، ولماذا كانت حنجرته مؤجرة دائماً ، ولماذا عض الكهل ..

وهو ويجعلها ثقوده الى خارج الغرفة، يتحسس هذه الأعضاء المرهفة، يمسك اليد الصغيرة الطرية ، فيمضى إلى الحفل، وينضم إلى العازفين، ويعود فى الليل الذى تضوعه أزهار الياسمين، وتفتح له الفتاة ويحس بعطرها المخدر، ويضع فى يدها حلوى من الحفل، فتضحك ..

يقولون له فى الفرقة : كثيرٌ من العميان نجدوا فى هذه الموسيقى الآلية ، وهو يُطلبون فى البساتين ن ويملأون جيوبهم، ويستأجرون سواقاً، ويجلسون فى المقعد الخلفى، وهو يصغى الى كلمات الغناء الباهتة ، وتتقيئهم الحفلات فى وجه الفجر، والحشود ترقص على إيقاعات القرود، وما يصل إلى الصفوف الخلفية من العازفين يتبخر مع دخان السجائر، والليل هو النهار، والحى هو السجن، ولم تعد أمه تكلم الموتى، بل تجمدت فى سريرها، وتاه لسانها، والزحام يشتد، والضجيج يصل إلى السرير، والخادمة جافة، تحولت الى مكنسة وغسالة، وضمها مرة بقوة فكادت أن تصرخ !

ينزل من السيارة، وينتظر أن تفتح الخادمة، ويتمكن من هصرها بين ساعديه، ولكنها لم تأت، وبدا الحوش مقفراً، وثمة أصوات غريبة تأتى من غرفة أمه، هل عادت إلى الحديث مع أزواجها ؟ ما من مرة تحدثت مع أبيه، وجعلته يكلمه . ويصغى إلى تأوهات اللذة تتصاعد

من أعماق الحجرة، ينتظر لحظة مذهولاً، حزيناً، مستثاراً، ثم يقشعر غاضباً، وكأن موجة وحشية أخرى تستولى عليه، ويندفع وهو يجأر، فينفلت مخلوقٌ أملسٌ من بين ذراعيه، يقبض عليه والرجلُ يصرخ ويكاد صوته أن يجتث من جسده حتى يلقيه فى الحوش مثل خرقة ..

**(٤)**

البيت أعمى وأخرس . تحيطه بقايا كثيرة ظلمات مركبة تنزل على عينيه، لم تعد ثمة شمس يشعر بلمستها، وأمه متجمدة على الفراش ن يطعمها، يكلمها، يحدثها عن أزواجها، تهز أصابعه، وتحفر فيها، لا يعرف ماذا تريد، أحياناً وامضة ينفجر حرفٌ من صدرها، يحملها إلى دورة المياه، يغلسها، يلبسها، يهدهدها بالأغانى ، غدت خفيفة ، وما تزال إشاراتها تحفر يده ، يقول :

– لم أعد مهتماً بالنساء، ولا أريد أن أتزوج، كيف يمكن أن يحدث ذلك، هل أنت عاقلة، كنت دائماً تحدثين الموتى، طوال عمرك كنت مجنونة، أنظرى إلى الخرابة التى صنعتها ، ذهبتُ شهوراً أخرى الى السجن، وفجرت الدماء من حولى، لا، لا، لن أضرب أحداً، لا تحفرين فى يدى، لا تحفرين فى يدى! نعم، نحن نعيش على أطباق الجيران، من بقى من أهل الحى؟ نحن باقيان فى بيتنا، فى أرضنا، الضجيج حتى فى الليل، الغرباء بدأوا يأخدون أحجار جدارنا، وفضل يأتى الىّ فى كل يوم، ويريد أن أبيع البيت، كلما أشترى بيتاً أزداد

الغرباء، لا لن أبيعه إياه، اطمئنى، ماذا تقولين؟ تخافين علىّ، سأبقى وحيداً ؟

ينهض، يمشى فى الحوش، يرفع رأسه وكأنه يتأمل النجوم، ماتت تلك الخرزات الملونات، واستباح الرمادُ الكون . يلبسُ البدلة، يتحسس ربطة العنق، ويصغى الى عجلات السيارة القادمة وهى تدخل الحى، دبيب محركها يعرفه، يمسك العود من عنقه . لم يمت الرجل الذى هصر عنقه، ولكنه أخذ بعض الذكريات الدائمة فى جسده، ألم يكن بإمكانه أن يتركه يستمتع ؟!

يصفر ويفتح الباب ..

# أطياف

## (١)

جاءه شبح فى الحلم وهتف به :

- أأنت مؤمنٌ أم كافر ؟!

صرخة مدوية لم يسمعها جيداً ، فلم يُجب . رأى صراطاً على جانبيه لهبٌ، وامرأة مجللة بالسواد . أدرك بعدئذ إنها أمة، ثم جاء الدوى جلياً، ودهش لأن الشبح يصعد على سلالم أعضائه .

أستيقظ على حصى تضرب نافذته المشروخة فى أكثر من موضع . عثمان كان يتطلع فيه بهيئته المرحة الساخرة . يقول :

- ألاتريد أن تنزل ؟!

- هيا أطلع ..

- لا، لا، سأنتظرك هنا .

كانا قد جاءا فى الليلة الماضية وأحدثا ضجةٌ، فأستيقظ أبوه ولسان زوجة أبيه ..

يسيران نحو الفندق . أمين يتطلع إلى عثمان بود ودهشة . منذ سنين حلم بهذه المشية، وبهذا الوجه العظمى، والجسد الهزيل، منذ أن حُوصر فى الصندوق الخشبى وسط الصحراء، فى ذلك المربع الرملى، بين أنصاب التلال الحجرية والشمس المسنونة الحراب ..

هذا الوجه الحبيب يعرفه، التحما فى معهد المعلمين ، بين الكتب والأشجار والسجائر، تعاركا حول أخطر الكلمات فى العالم . حين كان يزوره تفرح به أمه، ويقوم بالثرثرة معها فى شئون الأكل والدجاج والسحر، وهو الذى علمه كيف يخترقان السوق ليدخلا شركة المشروبات الكحولية، ويشتريان ست علب بيرة باردة، لا تزال رطوبة معدنها اللاصقة بالكيس تبلل ريقه ..

بعدها كانت الثرثرة عند دار الحكومة، حيث كان البحر ملاصقاً لها وقتذاك، وكانت السرطانات الصغيرة الطالعة من الشقوق، السوداء، الكالحة، الباحثة عن رزقها بين وحل الجزر، ترمقهما بحذر ..

لم يدريا ما لو السماء، ورائحة الغد المفعمة بالرماد والنار، مكتفيان بأرجلهما التى تقودانهما إلى الباص والزقاق .

والآن هما معاً ، كأنه لم يفقد عمراً وأحباباً، ويدخلان ليس دكةً من حجر تحتها أسراب سراطانات وقواقع، بل بناء عالياً، كأنه معول هائل غائص فى التراب ومندفع إلى الفضاء، شكل قبيح، ومزوق بالاقواس والأصباغ والزجاج اللامع والبلاط المرهف

يجلسان قرب الموسيقى والماء المتدفق فى خيوط لؤلؤية متكسرة، وعثمان يحدق فيه بنظرة غريبة، انعكاساتُ وإلتماعات أشتعلت مع زبد البيرة ، كأنه ثعلب ينتظر غزالاً صغيراً ساذجاً عند النهر، أشياء صعدت فى نفسه لم يحبها، ثمة أمر محير لا يدرى به، هل لأنه لا يدفع، أو لأن عثمان يتباهى بالنقود، أو لأنه يغازل النادلة الفلبينية بابتذال !؟

شئ ما صعد إلى رأسه، شئ ساخن، من هذه الطاقة البخارية النارية التى تندفع الى مسامه، وتكهرب روحه ..

يسأله :

– لماذا لا تشرب؟

يُمسك خده ، ويحس بأذنيه تنتفخان .

– لماذا جئنا هنا؟

يقول عثمان بحماس غريب :

– أشرب! أنس ما تعلمته .. طالع الآن تجربة جديدة . لم تعد تلك الأفكار تغنى شيئاً الآن . كل شئ تبذل طالع بعينيك، وأسمع بأذنيك .. إستخدم حواسك لتقرأ العالم !

يحضر على غير رغبته عدة علب فتتكدس فوق الطاولة، يشعل سيجارة وراء سيجارة، الخيوط تلفهما، وأمين لم يتعود مثل هذا الشرب، قبل سنوات كان أقصى ما يشربه ثلاث علب، وفى العلبة الخشبية المرمية فى الصحراء كان يحلم بزجاجة مشروب غازى، والآن

علب كثيرة وموسيقى ونساء من شتى الألوان، وفساتين غريبة، وعطور ثمينة، وأغرب ممتلؤن بالنقود والثياب والحقائب، وبنايات تنمو فى كل مكان، وعدة مثاقيب تحفر فى الأرض وفى رأسه وفى عمره، وبيتهم عتيق خرب، وهو ضيق ثقيل فى غرفة مكسورة الزجاج، مضمضته مكروهة عند زوجة أبيه . السرير البسيط الذى كان يتصور إنه سيجده، وينام عليه، حالماً به كامرأة، لم يره، وعاث الخراب بغرفته، وضاعت كتبه وأوراقه، والآن أين سيذهب؟

لم يتكلم، لم يقذف مشاعره بحبه لهذا الصديق، الذى يقول كلاماً غريباً، وهو قد وعده أن يكمل أطروحته عن نيازك الأفكار فى الصحراء العربية، وهو الذى توحد بصورة باتريس لومبا، وبلاد الثلج الحمراء، ماذا به؟ لا يفيق إلا ليسكر ، ولا يسكر إلا ليهذى ؟!

## (٢)

حيه يغدو ورشة عمل، البيوت الصغيرة الواطئة الجدران، ذات الغرف الصغيرة التى تُسمع هسهسة أسرتها فى الدرب، تثُقب أمعاؤه، تنثر أشياؤها الأليفة الرهيفة كالمصابيح القديمة، مثلما كانت تنثر ملابس الموتى عند البحر، خطواته مبعثرة، وروحه مُلقاه عند أكثر من فوهة زقاق .

هنا كان المطوع، هنا كان ذلك الكوخ الذى يُحفظ فيه القرآن، وحوشه الرملى، وزوجة المطوع التى كانت تغلى الأرز وتدعهم يكنسون

البيت و "يسفطون" السمك، ذلك السمك الرخيص، وهو يشرد من عصا المعلم ولم يحفظ شيئاً، وأخذته الكتب الجديدة، ولم يُعد إلى القرآن .

والآن فى هذه الليالي الموحشة، حيث اختفى الرفاق، ولم يعد يجد أحداً ، وكلما مر على طريق رأى خلية محترقة، جذوة عتيقة انطفأت فى عاصفة المعادن، فى هذه الغرفة القديمة التى شهدت كل الوجوه، والأحذية السوداء، وانتزاع الكتب والقصاصات الثمينة، راح يقرأ القرآن ، يحاول أن يجد فى دروب الصحارى وجوه فتيانه، والسر فى سيادة الرمل والقلاع .

تصبح خطوات أمين أثقل، وجيوبه فاضية، ويدهش من انتشار شعره الأبيض، يرى فى المرآة شظايا من وجه أمه . ذلك الصدر المفتوح المترهل الممصوص من ضغط الدم والسكر . ويسمع زوجة أبيه تغمغم فى المطبخ، وتعدد القذارات التى يتركها .. لا يعرف لماذا تحبه هذه المرأة، رغم كل هدوئه وعزلته ؟

يُباغت بضربات الحصى على النافذة . جاء عثمان إذن . وجاءت السكرة حتى الصباح، فلينقشع وجه زوجة أبيه، وليستقبل عثماناً وأصحابه المحشورين فى السيارة المندفعة، وروائح السجائر والبيرة وتكة اللحم والبقل تفوح .

يقول له أحدهم إن صورته كانت معلقة على جدران جامعة باتريس ، وأنهم الآن يهابون الجلوس معه، ولكنه يبدو .. عادياً متواضعاً ، وتساءل باستغراب : فلماذا حبسوك كل هذه المدة ؟!

يعسكرون فى خمارة رخيصة، صاحبها أحضر كل النفايات القديمة من أدوات معدنية وكتب وأشياء، ووضعها على الزفوف المختلفة، المتغلغلة كالعروق فى جسد الحانة المبعثر فى الجهات ودروبها الضيقة المتلوية، وظلماتها المتداخلة بأنوار شاحبة، وبحماماتها الصغيرة الكريهة، وسجادها العتيق النخر ..

أصحابه مندفعون فى سلاسل من الضحك والتعليقات التى لا تعطى مونولوج عثمان فسحة للصعود . فى إنكسارات الضجة القليلة يسمعه :

– ألق بالماضى فى البحر . لم يُعد يفيدنا أولئك الأجداد، وإلا لأعطونا شيئاً مواجهة كل هذا الركام .. ليس سوى العصر، أنظر زجاجاته وموسيقاه وأبنيته وجمال نسائه .. ماذا لدينا .. البراقع والدراويش وأسمال الفكر !؟

يندفع بقوة أحصنة العرب ، يغزو فراغ عقله، يُحدث فيه وشوشة معدنية، وكلٌ يتكلم عن مغامراته وخداعه للفتيات، فيتناثر لعاب السوق السوداء ، والتجارة ببنطلونات الجينز وعلب الملبارو ..

وكان الرجل الأشيب فى الحزب يقول له : يجب ان تبقى فى الوطن، لا تفكر انت بالسفر والدراسة !

الشلة تضحك على رجل ملتح دخل المكان خطأ ، تمتلئ الطاولة بالعلب والسجائر والطفايات الممتلئة بالبقايا المهروسة، وتمسك الأيدى أجساد الأثيوبيات المقدمات للشراب اللواتى يضربن الأكف بدلال وغضب محسوب .

دخل رجل قصير قوى وجلس قربهم، وبدا مكفهراً حانقاً وهو يرمقهم .

بدأ أمين يدخل سرداب اللذة السرى، حين تتحول الفقاقيع إلى نشوة وتمرد، وأحس إنه لا بد أن يضع حداً لإزعاج ممض فيه، ألم العودة والإفلاس، والغربة، الغربة الفظيعة حيث يدور على البيوت المهجورة، والمدينة ممتلئة بالأغراب، وقلبه يسقط على الرصيف ولا ينتبه أحدٌ، حنق كبير على هؤلاء الضاحكين النزقين ..

لا يجد سوى أن ينهض، ويغادر بغتة، تاركاً الجمع مذهولاً.

وفيما بعد، عرف عن الشجار الذى وقع، واندفاع الرجل القصير القوى بزجاجة فارغة مسنونة الرأس نحو عثمان لأنه سمعه يشتم الإله ..

**(٣)**

الطريق طويل إلى المجلة، الحر الفظيع، والضحية التى يخترقها كانت بساتين صارت مساكن لغربا وموظفين مرفهين، ورئيس التحرير المنتفخ لحماً يعتبره صيداً فى مجلته المدعومة من سفارة عربية .

الصحفيون السودانيون مشردون مثله، وكانوا غيمة باردة فى وهج الصيف، وتركوه ينزلق إلى أرض الحمى والقرى، مصوراً بالعجائز وبقايا الفلاحين الذائبين فى الأرض والأملاح، المتبخرين مع الرطوبة النارية الصاعدة من البحر ..

يختلط بموكب حسينى، وتأتيه طرطشات الدم، هنا يحلق عروة مذبوحاً فى الصحراء، وكل البدو الرعاة لم يصلوا إلى القصور، والسجاجيد مرسومة بخيوط الذهب وعروق المزارعين، ولم يستطع أن يتخلص من الزحام الحسينى، وهو يرى السلاسل تغوص فى جلد الظهر، حافرة خرائط عربية عميقة، تمتد من الكوفة إلى روح الحسين، يصير فى النهر الفائض بالأشلاء الدماء سورة، يترنح من الرائحة والألم والشوك الذ يتغرز فى العينين ، يتامل النطع والسيف ورأس الزقاق المقطوع ، ويسمع صرخة الحلم فجأة " أأنت مؤمن ..؟ ، ورأى السور الكبير الذى قسم روحه، وأشلاءه فى كل الجهات ، ودهش هل هو الذى قطعت رقبته فهاهو دمه فى كل مكان ..!

خلصه باص مزدحم من فوضى عارمة، ورأى الطرق المتقاطعة، وجلس على طاولة عثمان كأثاث فرعونى مستعمل، ولم تنعشه الباروكات وزجاجات العطر والبيرة، وأحس بالقعر العميق الذى يملأه ..

أسطوانة عثمان تدور :

– دعك من ..

تأتى امرأتان شقراوان وتخرجانه من الزمن الرملى . عثمان يدفق لهما المشروبات والخضراوات والتعليقات الساخرة والنزقة، وبقايا جرح الرجل القصير لا يزال فيه، فيتلفت حذراً، وأمين يتحلحل وينغمر فى بشرة الزبدة المضيئة ورقائق التفاح وفيض الكمثرى بالضوء والحنان، ويخرجون فى كتلة متداخلة من السواعد والأفواه والأطياف ويحلون فى تعريشة من النخيل والقبل والأطباق ، وتأتى زخات القرى المحملة بالرطوبة والأنين، فيضحك عثمان ويدغدغ المرأتين المنفجرتين بالصياح، ويسمعون من ميكروفون ذكرى وفاة إمام ..، ويرى أمين أسلاك برق ونار ورجالاً يعبرون المدى، والشرق ذبيحة . أغفى ونام وصحا .

رأى ثلة كبيرة تحبط به . أمه وأبوه ورفاقة وجلادون وعثمان والمرأتان العلبة الخشبية، ومياه الشتاء النازلة عليها وابلاً صارخاً، وأشتد الكلام :

– حتى لو كانوا يؤمنون بالخارفات فهم أهلك !

– أنظر إنهم .. يتبركون بالوحل !

– تمائم وخرز وجيوب ملآى بالدم !

– يا سيدى أنفجر الهدى من السماء !

– الأرض تبعث والقيامة قريبة !

لم يفهم أمين لماذا سار وحيداً . وجد نفسه فى أدغال القرى، بين غابات النخيل المذبوحة التى صارت جذوعاً وقصوراً، والشوارع

المبلطة النظيفة المضاءة المحفوفة بالفلل، تقود إلى أمعاء القرى، إلى الدروب المفقؤة الأعين، وإلى أزقة الأولاد العراة، وكتل الحصى والسعف والعظام وأسلاك الكهرباء المعلقة فوق الرؤوس و " سلندرات " الغاز المتناثرة عند الجدران والمخابز الرثة وقدور الفول والحشود التى تغرف والهياكل الشاحبة التى تسير بأزرار الأقراص والإبر والأدعية .

جثم عند غرفة لها حوش بسيط . حدق فيه المالك العجوز بذهول . وظل ساعات هائماً فى الحقول، يغترف هواءً نقياً، ويقيم صداقة مبكرة مع العصافير الوفيرة .

فى الغرفة العارية العاطلة من السجاد والستائر، على الحصير الى اشتراه، أمام التلفزيون الصغير الذى بالكاد يقبض على شئ من أجسام الفضاء، وضع الأكلة الزاهدة وراح يمضغ ألذ وجبة بارتياح وحينئذ سمع راديو الجيران وصت المقرئ الذى نفذ الى عظامه :
" ألم يجدك يتيماً فآوى " ؟

كان صوت أمه يشتعل واحتضانها يصهره " أترك كل هذا، سأموت بسببك ! ويرى جسمه خلف قضبان " الجيب " بين هرم الكتب التى نزفها من رواتبه، وهى تحترق، فيغور فى رمال الصحراء، فى عيس لايصل إلى شئ، فى صندوق خشبى، عند التلال الحجرية والجنود يصوبون على أهدافهم البشرية، والعالم ثقب صغير، وقلم "ناشف" مُهرب يذكره بزرقة البحر والحرية ..

كـأن العمـر كلـه ذهـب هبـاءً ، وهـا هـو صـمت عميـق بلـفُ الأرض، والناس، ثور الساقية الأبدى يجتر البرسيم، ويعيد إنتاح السماد البشرى، فيدهش من هذا الحضور الخالد لمعاوية، والغياب الدامى للحسين ..

**(٤)**

لم تتبدل أحواله بسهولة يرى عثماناً ينثر آلاف الدنانير فى سفراته المستمرة إلى تايلند، وهو يجمع الأوراق القليلة من قروح جلده، ويرمم عينيه بنظارات، ويحتضن عثماناً العائد بحكايات غابة النسوة الكثيفة الملونة، والجزر الفضية ذات المياه الزرقاء اللامتناهية وصخور الجبال العملاقة، وكأن صاحبه يستمتع بتعذيبه وهو ينشر اسنان رحلاته فى لحمه .

كلما عاد أمين توحد بالفراش، وبغمغمة ميكروفون المأتم، وكأنها منولوج تاريخى من الألم والدم، فيرسل سطوراً إلى الجهاز فيبتلع أصابعه.

يدور على الأحياء، يصادق الفتية والبرسيم والنمل، ثم يتوحد بالفراغ .

يخاف على عثمان وصحته ونقوده فيحضنه خائفاً ليدفعه بغضب :

– أنت بلا جواز ، بلا مال، بلا نساء ثم تدفن نفسك فى كهف معتم .. وخرابة نخيل !

يراه مُحاطاً بثلته الكبيرة، القدور الممتلئة ، والعُلب تغطى الطاولات ، يتسلم عثمان أول دفعة من النساء الروسيات، فيصرخ :

– بدلاً من أن نتغرب ونُلاحق .. الأن هم هنا !

ثم يقول مداعباً إياهن جميعاً وبالروسية :

– أهلاً بالرفيقات !

صور التليفزيون لا تشد النسوة المنغمرات فى الدخان، وساحة الكرملين الثلجية ملأى بالمتسولين . يندفع عثمان بين القدور التى تبقبق والممتلئة بالسمك والجمبرى، بين حشده الضارى، يده لا تسقط العلبة أبداً، والسيجارة فى زاوية فمه، وبدله المكتب الأنيقة، ورباط العنق المحكم، وضحكاته الحادة المتقطعة، غريبة ..

يطالع كم صار هيكله عظمياً ناتئاً، وأمتصت السهرات كل بريقه، وغدت ثرثرته مُنهكة، وتتصل حتى أذان الفجر، ولديه سيوف كثيرة يغمدها فى الأصدقاء اللذين خانوا، وفى الملتحين الذى تكاثروا رغم كل خطب جولاته فى الفنادق، وتتقطع السهرات بشجارات حادة ، وبالبكاء، ويشحوب متصاعد للذاكرة ..

يذهب إليه فى مكتبه الصباحى . بدلة أنيقة وجليد . لا رفة من إبتسامة ولا زهرة من روح تلاشت روائح المطاعم الرخيصة التى يندفع إليها مع الشلة الفائرة بالصحة والعضلات والإفلاس . وهو لا يكاد

أن يأكل شيئاً ، وعلبة البيرة يخبئها دائماً فى جيبه ، وتظهر من تحت المقعد ، وتتسرب كل نقطة الى الوجه الحجرى الظامئ أبداً، وحين تلقيه السيارة يدخل البيت جامداً ، موقراً أباه أو أمه ويمضى إلى غرفته بهدوء مطبق .

يجمع عثمان أغراضه من المكتب ويقول :

– قدمت إستقالتى ..

ويعرف إنه فُصل ! يأخذه بسيارته الى الفندق يحاول أن يجره بعيداً دون جدوى . يطلب نقوداً يمضى محنى الظهر نافخاً الدخان بشوق إلى العب !

## (٥)

كانت القرية أدغالاً بشرية تتحرك نحو الشوارع ، كتلاً من الشعل تتساقط على البيوت والطرق ..

ليس ثمة خبز أو ضوء، والشوارع تحتلها فرق متضادة عنيفة، والرؤوس تنفجر، ويتراكض رجال صارخون فى أعماق الحقول . يقذفون كتل النار . يرى الفلل تتوهج، ثم تدوى سيارات الإسعاف والإطفاء ..

لم يعد فى بيته شئ، والجند يقتحمون المنازل ويضربون بالهراوات . وفى الليل يهجم المقنعون على كل ما يدب . إمتلأت غرفته بدخان

الإطارات المحترقة والقنابل المسيلة للدموع . وجهه ملفع بقماش مبلول، وأصابعه تبحث عن الأسطر فى الظلمات .

أنقذه "الفاكس" فى التراسل مع كائناته المادية وراء خطوط النار.

عبر "النقال" راح يبحث عن عثمان . أحس بحاجته الغريبة الى هذا الُمفكك والتائه . وكانت الأصوات والعلامات تأخذه من يار الى غرفة مؤجرة، الى فندق رخيص، وإذا به يسمعه بعيداً، هارباً من مطاردة الدائنين .

جاءه صوته هادئاً، منكسراً، لكنه إستعاد مرحه ببساطة، وكأن الغربة والإفلاس والبطالة والملاحقات لا تهز فيه شعرة . لا يزال يسمع الموسيقى وثرثرة النساء، يشرب الكؤوس الكثيرة، وينام فى غرفته الرثة، ثم يصحو متحجراً، ليبدأ فى الظهيرة مشواره المخيف .

عثمان بدوره كان يصغى الى المخبأ الذى ورط نفسه فيه، ويضحك من نيران الحرية المتفحمة ، ويقول : ألق بالماضى، فيصرخ : كيف، كيف؟!

رأى أمين نفسه كأنه فى قعر العالم، نازلاً الى الأشباح وجثة تموز، مدققاً فى ملامح المطلوبين ، وعثمان فوقه بعيداً، فى قمة فندق مشتعل بالضؤ، وغاطس فى المياه العميقة .

رقد محموماً، سمع دقات من جاره، وثمة أسياخ تنمو فى بطنه، كأن أحداً يطبخ البشر فى قدور كبيرة، ويوزع رؤوسهم الناضجة فوق أطباق الرماد .

يُرسل أوراقه وهو يرى الضؤ الخافت ويسمع رنات حروفه وهى تتساقط فى العالم الحى، وتأخذ أصابعه المقطوعة وأسطوانات الغاز المتفجرة الصاعدة الى عنان السماء فى إحتفال مدو توزع لحم الفقراء على الملائكة، ومولدات الكهرباء وهى تغذى النهار بالنار والليل بالظلمات ..

وإذا بثلة ملثمة تقتحم الغرفة، تتوغل فوق أوراقه وكتبه، تتطلع إلى بعضها البعض بدهشة ورعب، تحدق فى أوراق الفاكس وتسحب الثعبان الطويل النائم ، وتقرأ وهى تسكب الكاز فى إنحاء المكان، تحيطه ألسنة النار وتكتب سطورها على جسمه، رأى نفسه فى العلبة الخشبية وسط الصحراء يكتب على ورق الصابون، ويبصر الأشياء من ثقب خرفه مسمار صغير .

# الرؤيا

نا الكلب عنتر، كما أسمانى صاحبى ومكتشفى الأول : عطية المجنون، أتقدم بمحاضرة فى هذه الجامعة العتيدة، متشرفاً بالتحدث أمام نخبة من المفكرين والباحثين، متمنياً أن تكون مداخلتى المتواضعة فرصة لإثراء الفكر فى هذا البلد المعطاء .

لقد تغيرت مدينتنا كثيراً منذ أن تفتحت عيناى لتراها لأول مرة . لقد كانت مدينة عظيمة وهائلة .كانت ناطحات السحاب على مدى البصر، وكنت تشاهد خطوطها الهائلة البرايقة، سائرة البحر الأخضر الواسع ، الذى لا ينتهى إلا بسماء زرقاء شامخة .أين نحن الآن من هذا ؟ لماذا عدنا إلى الخرائب ؟ كيف حدث ذلك ؟ سوف أخبركم عن هذا من خلال حياتى ذات التجارب المريعة .

لقد كان عطية يهذى ويتراقص مطرطشاً لعباه حولى، وهو ينتزعنى من برميل القمامة، ويضعنى فى صدره، وينظفنى فى كوخه..

وبصراحة فظة ، لم تكن علاقتى بمحبى الأول، مريحة وممتعة . لقد كان هذا الأب الذى يغذينى بالسمك المتعفن، وببقايا علب اللحم، يربطنى بحبل سميك، ويجرنى فى الدروب، فوق أسنان الطرق .

كان يمشى بسرعة وتقلب غريب، فأهتز وأترنح ، ويشدنى الحبل بقوة من عنقى، فتختفى كلماتى، ويتفجر نباحى !

لم يكن الصغار يتركون عطية سائراً فى مشيته المتراقصة الغريبة، ورأسه تتطلع إلى جانب وحيد من السماء، ولعابه يتدلى كخيط لا ينقطع ، كأنه فى نشوة صوفية دائمة ؛ بل ينقضون عليه من كل الجهات ، ويمطرونه بنوى اللوز وكرات القراطيس والخيش، فيخثم على الأرض صائحاً ، متحاشياً الضربات، جارنى معه إلى قاع حفرة، أو نترنح معاً من فوق الرصيف ، والصبية يسرعون إلى انتزاعى منه، لكنه يسحب الحبل بقوة ، فيكاد يقبض على روحى بيده الصخرية، فنلتحم بقوة بين التراب والغبار وسوائل اللوز واللعاب والدم .

وبدلاً من أن يأخذنى بحنو، ونحن نعود إلى ذلك الكوخ المهترئ، الملئ بعلب الحديد الفارغة، والتى طالما قرعها دائماً مسبباً لى الصداع والألم ؛ فأنه يربطنى بعمود، وبروح يقذف على جسدى الواهن الجائع، كل الكرات التى أصابته .

وحين ينام يترك جروحى لليل والعتمة والألم ، ويدع الحبل الملتف على جسدى يواصل التغلغل بخيوطه وأملاحه ورقصه فى عظمى .

كانت تغمرنى شرارات وصرخات وتأملات مريرة فى هذا الوجود الغريب ، وتندلع رغبة عارمة للإفلات من هذه الحبال والضربات والصراخ ن ومن الجرى الفجرى إلى براميل المطاعم ن وتلمس بقايا المخمورين .

حتى أسمى لم أتمكن من معرفته بوضوح ، فعطية لا يكاد يفتح فمه بكلمة ، بل هى حروف متناثرة ، وغمغمة مرعبة ، وأصوات ناتئة مُضحكمة .

كان يرق قلبه احياناً، فيضمنى إلى صدره، ويجرى بى على ذلك الشاطئ الأبيض ذى البنايات الشاهقة، ومربعات الشجر، والمقاهى، والسفن المفتوحة للرواد والموسيقى والدخان، وحينئذ كنتُ ألعب وأقفز بين الزبائن وأتطلع إلى الشاشات المضيئة بالألوان والكلمات، فأقرأ وأغنى وأرقص وأسبح فى مياه البحر والناس .

لكن تلك الومضان سرعان ما يعقبها رفسٌ وقذفٌ فى الهواء وعلى الجريد، وربط فى ذلك العمود، فكنتُ أحتجُ بعنف، دون أن يأبه عطية .

فى ذلك الربط المضنى، وفى سكرات الحلم والألم والضنى، فى لحظات الجوع الحارق والرغبة فى الأنثى والرفقة والموت ، فى الليل المدهش بظلماته وقمره الذى يشبه عظمة كبيرة فى السماء ن تسيحُ منها خيوطُ الدهن واللحم، فى تلك المصيدة من الظلمات والآهات ..

كنتُ أرى ذلك النور البرتقالى الواسع المدهش ذا الأصوات المنفجرة ، والدوى المخيف، كانت الأرض تنفلق، وكرات هائلة من النار تتدفق نحو الأبنية والبيوت والشوارع، تجئ بالونات كبيرة تحرق الليل والرؤوس والشجر . ويطلع رجالٌ من الأقبية ، من الغابات ، من الفيافى ، والكهوف وينتشرون فى العيون ..

كنتُ انبح طوال الليل، أرسلُ صرخاتى إلى المارة، والى أصوات المذيعين، وللأقمار الصناعية فى السماء، وإلى الكتب والجرائد، وإلى ألسنة البغايا ولعلعة الميكروفونات الصاخبة..

كنتُ أنزف من كل خلاياى .

انا هيكلٌ عظمىٌ مرهق يترنح وراء شبح رجل : بقايا كائن، لا يسمع، لا يتكلم ، يقرع العلب طوال النهار، يضربها فى الحجارة الصماء، يهز طبقات الأرض، ولعله حينئذ كان يسمع دبيباً ضئيلاً، لكن راسى كانت تنفجر، فتندلع حربٌ إذاعية بين مائة محطة، وأذهل كيف أقاوم وأفكر فى مسائل الوجود والنار القادمة، وتظل الأصوات الغامضة، الصرخات الوحشية ترن فى أعماقى، خافتة، ثابتة، مؤلمة ..

وإذ كنتُ أصرخ لكائن ما، لكى ينقذنى، فإن رفاقى الكلاب كانوا يتحسسون الخوص قرب جسى المعلق على العمود، ويحاولون عض الجريد وقطعة، بلا فائدة .

راحت كرةُ النار تكبر فى رؤياى كل ليلة، وتشع بالزجاج المتطاير، وبالجذوع والجذور المقتلعة من أعماق الأرض، وبالأشباح، والجثث الطافية، والمعلقة ..

لم أجد سوى أن أصرخ وأعض يد عطية . أتقلب وأبكى وأتضرع، فيقذفنى إلى ركن الكوخ، ويدوس روحى .

يربطنى بقوة وينام .

حينئذ حدث الدوى الذى رأيته فى قعر نفسى . جاء الظلام الذى أنفجر فى نورى . دوت الصواعق، ونزلت النجوم إلى الدكاكين والأزقة والعظام، وراحت الشهب تتساقط محدثة دوياً وهزات عظيمة ..

أصغيتُ إلى فحيح رجال وهم يلتهمون الأجساد الغضة .

بدأ الكوخ يحترق . عطية لم يسمع أى شئ . ثم بدأ اللهب والدخان فى قلقلته وهزه .

سقط قرب قدمى لوحٌ مشتعل . اللهب عضّ وجه عطية، أنتفض مذعوراً، محدقاً برعب فى الكوخ، وكاد أن يخرج .. لكنه عاد وانحنى والدخان واللسع يحيط بوجهه. رأيتُ أنصال النار تتكلم فى جلده .

كانت صرخته بأسمى فى ذلك المحيط من الضؤ الجارح مدهشة وغريبة ورائعة . كان لأول مرة ينطق إسمى بقوة ووضوح، ويتلقى جذعاً مشتعلاً، فنزف اللغة والجسد معاً .

حين خرجتُ لم يظهر من كومة النار والسعف الأسود .

اختفت بعدئذ النار، وعادت السماء إلى الزرقة، ومشت الأرض بشوارعها وشاحناتها ممتلئة بالتفاح والصبايا .

قالت لى الريح :

أني ستمضى وكل الجهات مسدودة أمام الزهر، والبنادق تبحث عن جسدك، ورفاقك يقتلون عند البراميل وهو يبحثون عن لقمة العيش، والقيود تنغرز فى عظامهم، والحفر تستقبل جثثهم ؟!
أين تمضى وجسد عطية فى روحك، كلما التفتوجدته أمامك، وترى حصاه يدقُ رأسك، وحباله لم تفلتك، ولعابه يندلق فى حلمك!؟

كنتُ مذعوراً، أهرب من كل مكان، لا تسعنى الحفر، وتصرخ علىّ البراميل، وتشير الىّ اللافتات فى ضؤ السيارات أتحسس عقارب تدب فى أذنى . ومن بريق النجوم أرى وعيد النار القادم .

لماذا لا يتركنى هذا الحلم المخيف، ولا الأصوات، ولا الأضواء، وتفتت الشمس إلى مليون قطعة بحجم الجُزرُ، ويغدو البشر مثل النمل المشتعل ؟

أشرب بقايا علب السكارى، أشم دخانهم، أغوص فى ماء البحر البارد، أتطلع إلى ألعاب مهرجى الشوارع أهرب من نشرات الأخبار، لكن الحلم يندلع فى الليل ن يكبس على رأسى، وتتدفق عربات النار من الكهوف..

لستُ إلا من بقايا عطية المجنون .

لماذا أسمانى عنتراً ؟ هل كان يدرك هذا الاسم، هل وصلت شظاياه إلى قعر عقله البعيد، المتوارى فى باطن الجسد؟ هل تريد تحويلى إلى بعض معناه، فى مدينة هائلة من الصمت والخوف؟ هل كانت أحجاره وضرباته استثارة لى لكن أثور؟

لماذا أجرى دائماً، وأحس بأصابعه تتغرزُ فى عظمى، ولا أستطيع نوم الليل، ولا قطع الحبال، وأسمع اصوات تقترب منذُرة بعاصفة النار، فأصحو من الكابوس، وأجد أننى نائم، أجرى فى فراغ العتمة، أصرخ بلا صوت، أوقظ الأصدقاء فتصحو الجثث بهياكلها المقهقهة..

هيا، هيا، يجب أن أغير نفسى، كنتُ أقول لذاتى هذا، بل كنت أعضها، كما لو كانت عظمة، ولا أطعم سوى خلها .

بدأت أخربش على الورق، وأعبث بالألوان، وأحول الأصوات إلى ضؤ .. أصرخ :

– هذه المدينة كلها نائمة ومسترخية فوق وسادة كبرى من الرماد، وأنت وحدك اليقظ المعذب، تلتهمك الرؤيا كل ليلة، كل ليلة !

لا، لا! يجب أن تقول شيئاً . ليس معقولاً أن ترى النار تقترب وأنت تمصمص العظام بلذة . ألم تتنفس الفجر فى هذه الأرض، ألم تعبئ عروقك من فرحها وأسماكها ؟

أكتبُ ، أكتبُ كثيراً علّ وسادة مسترخية تنهض .

تخرج أحلامى صارخة . اللهب المدفون فى رأسى يتراءى وهماً يلتهم البشر يظهر المجانين من تحت الأرض وهم يمدون أسلاك الديناميت عند أسرة الأطفال .

يستدعونى إلى غرفهم المعتمة الباردة . أتلقى رفسات كثيرة . يقذفون بى إلى الجدران .

– من أنت لتفسر هذه الرؤيا ؟! مجرد كلب يعيش على المزابل ن فلتحترق هذه الأرض ثانية وثالثة وعاشرة .. أنت عليك أن تخرس .. لا تظن نفسك كلباً مميزاً، لأنك كتبت شيئاً !

بعد أيام كانت طوابيرٌ من المركبات الحديدية تقذفُ النار فى كل اتجاه . وطائرات تغير علينا من كل الجهات . لم يبق بيتٌ واقف . وبقيت أيد كثيرة مرفوعة أو مقطوعة !

السادة اللذين امتلكوا كل شئ هربوا وتركونا بين الأنقاض!

لكل كلمة عظمتها، ولكل صمت عاره، لكل روح صاعدة نبيلة تواجه الخطر قدسيتها، وللزاحفين والهاربين عارهم الأيدى ..

وأنت أضعت السنين كلها فى النباح على الأشباح !

هرب الغزاة واستعادت الأرض عافيتها . عدنا للخيام والإبل، رحنا ندرب الأطفال على الضحك وعاد السادة للخزائن رحتُ أخلط بين الرؤيا والخبز . لازلتُ أحلم بالنار هناك محطات كثيرة مفتوحة وتضج الحمم هناك ..!

أيها السادة دعونى أكمل محاضرتى، غير معقول أن توقفوننى وتسحبوننى وأنا بعد لم أنه حديثى بين كل هؤلاء الحاضرين الصامتين!

# محاكمة على بابا

المذيع : حدث ما لم يكن متوقعاً ، حدث الأمر الرهيب، قل إن الشمس انفلقت، قل إن القمر سقط فى قعر المحيط ! فمن يتخيل إن على بابا بكل عظمته التى لم ترتعش وتهتز طوال أربعين سنة، يُقاد مخفوراً إلى المحكمة، يوضع فى سيارة عسكرية مكشوفة، وهى تسير فى الأسواق الضيقة، وحشود الباعة والمارة تترك حواتيتها ومقاهيها وتحدق فى الرجل الجليل، الذى لم ير أبداً مثل هذه الدروب، ولم يشاهد هذه الوجوه المعروقة، والظهور المكسورة، والشوارع الزلقة ؟

هل تصدقون ذلك أيها السادة ؟ إننى أصور لكم المشاهد لحظة بلحظة، ولكن الكاميرا لا تستطيع أن تندس وتلاحق ذلك "الجيب" المغطى بالقضبان، المندفع، والرجل الكهل يخفى ملامحه بغترته، التى غدت صفراء ذابلة، وأين كان منها ذلك التاج المتلألئ، وحشود الحرس شاكية السلاح، والسيارات السوداء الطويلة التى تمرق مروق البرق، صارخة بأبواقها ودرجات مرورها النارية، قافزة ضلوع المشاة والإشارات والهدوء ؟

إننا نتقدم الآن نحو المحكمة . ثمة زحام هائل . العدسات تنهمر فوراً على السيارة المتوقفة . وهاهو السيد على بابا، حاكم المدينة السابق يترجل.. أنت ترونه الآن . كم هو كهل؟ من كان يتصوره يمثل هذا الجسد النحيف المرهف؟ كم تبدو عليه علامات المسكنة والطيبة والبراءة ! هاهو حارس مجهول يجره نحو السلم ..!

لقطات الكاميرا : تدفق رهيب من الناس . على بابا غير قادر على اختراق كتل المصورين والميكروفونات والأيدى والرؤوس . صراخ ثمة رجل يسقط فى الزحام . آخرون يمسكون الحاجز . الضجة تتعالى . طابورٌ من العسكر يزيح المحتشدين . على بابا يختلط بأرباب السوابق اللذين قذفتهم شاحنة . تدافعٌ، سقوط، ثمة أناس ذوى بدلات فاخرة يصرخون :

– امنعوا هذه المهزلة ! هذا عارٌ !

الصور تضطرب الوجوه تختلط بمرأى الأقدام والأحذية والبلاط .

المذيع : لازلنا معكم أيها السادة ، وقد رأيتم كيف كان الزحام رهيباً ، وقد تعثر مصورنا ، ولكن ها نحن الآن ندخل قاعة المحكمة الكبرى ، ولاتزال كتل البشر تموج بنا ..

أنتم تطالعون الآن : وزراء سابقين، موظفين كباراً، رؤساء قبائل وأحزاب . وعامة مغمورين متألمين .

إن كل الأمة تنتظركل وجوه الناس تحدق فى المصاب العظيم .

لقطات الكاميرا : تنفتح بوابة القاعة ، تمتلئ المحكمة بالحضور المتدافع على مقاعدها، يبرز على بابا فى قفص الاتهام . وجهه يكبر شيئاً فشيئاً، تظهر التهدلات والخطوط المنتفخة أسفل العينين، والوجه العظمى غائر الخدين، والشوارب والأهداب واللحية زال عنها اللون الأسود .

يحصل هرجٌ مفاجئ، الحضور فى نهوض مباغت، القضاة يأخذون أمكنتهم البارزة فى صدر القاعة، يحدقون إلى المتهم، ثم يتهامسون، وتبدأ الجلسة.

الإدعاء يتكلم قليلاً، ويبدو مرتبكاً، متطلعاً إلى البوابة، ويروح يعدد تهماً ..

يحدث قطع أثناء تلكؤ الإدعاء ، ويبرز رجلٌ من صف المحامين مبتسماً . تبدو ملامحه صخرية ، ونظراته ثاقبة قوية .

المحامى : ( متقدماً بمهل وكبرياء ) أنت ترون أيها الحضور الكريم، إن الإدعاء ليست لديه أية تهمة جدية ضد موكلى . يتحدث عن الجرائم والفساد دون أى دليل واحد . إنه يلطخ سمعته هذا الحاكم الجليل الذى خدم المدينة طوال أربعين عاماً ، لم يتزحزح فيها يوماً واحداً عن كرسى المسئولية . ماذا كانت هذه المدينة قبل أن يحكمها ؟ مجرد قرية صغيرة حقيرة ( أصوات مستنكرة ) ثم جاء هذا الهمام، وغير كل شئ فيها . أصبحت مدينة عملاقة . لقد كان هناك لصوص سرقوا كل خيرات الأرض ووضعوها فى كهف لهم . هو وحده الذى

عرف كلمة السر ، وفتح البوابة السحرية وأفاض على الناس من كنوزها .. من يتذكر شيئاً آخر؟! منذ صغرنا ونحن نطالع هذه الصورة البهية : على بابا وهو يقود جحافل الناس للاستحواذ على الذهب والجواهر والمال ، ويحولها إلى نافورات وطرق ونجوم . لقد حاول الإدعاء أن يجلب شهوداً فراحوا يتمتمون ويهذون دون أن ينكروا هذه الحقيقة التى حفظها الأطفال مع الحليب .

على بابا .. على بابا .. هو الذى فتح الكنز .. هو الذى سيد ناطحات السحاب .. هو الذى أجرى الماء من الأرض اليباب، هوالذى شق النهر الأزرق ووضع الحدائق المعلقة وملأ البحر بالسمك، والبرارى بالغزلان، والشوارع بالمقاهى، والرؤوس بالأفكار والمشاعر، والتليفزيون بالأخبار . إننى أتحدى الإدعاء أن يُحضر أية ورقة تثبت إن الأطفال لم يولدوا بعنايته، والطرق والمجارى لم تنطلق باسمه، والفنادق والمتاجر لم تظهر فى أرضه ..

الإدعاء : امنحونى أيها القضاه الموقرين قليلاً من الوقت بانتظار الشاهد الأخير، إنه الرجل الوحيد الباقى من الجماعة التى قيل إنا عصابة الأربعين حرامى ..

المحامى : مقاطعاً إلى متى ننتظر؟ وأين كان شاهدك طوال هذا الوقت؟

الإدعاء : إنه فى .. مستشفى .. الأعصاب ..

المحامى : ساخراً هل يمكن للمحكمة الموقرة ، وهذه الجلسة التاريخية، أن تنتظر مريضاً .. من .. من مستشفى المجانين ؟!

ينفتح الباب ويتقدم رجلٌ كهل بحذر . لغوٌ وصخبٌ ثم يحل هدوءٌ عميق والرجل يصل المنصة أخيراً .

الرجل : من الغريب أن تنتظر هذه المدينة رجلاً مغموراً يعيد إليها ذاكرتها وكل هؤلاء الزعماء والعلماء يملأون شوارعها ومحاكمها . ترددتُ فى المجئ إلى هنا، لم أصدق أبداً إنه يمكن أن يُقبض على هذا الرجل . أربعون عاماً وأنا أبلع المسامير والحبوب والطعام الملوث فى مستشفى الأعصاب . كل رفاقى اللذين كنا نحمى بيت المال طبخوا أو سجنوا أو عذبوا حتى الموت .. ثم أستبدل الأمر بحكاية مضحكة ..

هذا الرجل القابع فى القفص كان بدوياً وقاطع طريق ومطلوباً للعدالة . جاء إلى المدينة وهى مزدهرة، مليئة بالبساتين والمعامل والأطفال الحلوين ، وكانت غاباتها تتحد بالجبال .. انظروا الآن إلى الرمال وهى تملأ النوافير والعيون! والأولاد يبيعون جلودهم والحبوب .. لماذا تحدقون الىّ مذهولين ومستنكرين ..؟!

كان يقود ثلة من المجرمين أحتلوا بيت المال وأخذوا الذهب وسندات التنمية ومدخرات العمال والأجيال وحلى النساء . هل يمكن أن يُفتح جبل بكلمة سم سم ؟! أتعرفون ماذا تعنى هذه الكلمة ؟ إنها صيحات المعذبين وهم يصبون الحمم فى آذان رفاقى ..

(قطع) كانوا يقيمون حفلات الشوء فى أجساد .. ( قطع) ..

( الكاميرا مسلطة على وجة رئيس القضاة ) : تعلن المحكمة براءة المتهم المدعو على بابا من التهم المنسوبة إليه لعدم كفاية الأدلة، وعودة الشاهد .. إلى علاجه ..

صخبٌ وضجة عارمة .

المذيع : بسرور ودهشة ها أنتم أيها المشاهدون الكرام ترون وتسمعون الكلمة الفصل .. التى ..

( اهتزازات حادة وإنقطاع للبث ) !.

# الحارس

السماء بلون التراب، والبحر طفل أزرق يلعب، يهز السفن ويتمرغ على الرمل .

يتطلع إلى النوارس المتحلقة فوق صورای السفن؛ هل تريد الاستحواذ على صناديق الأكل الكثيرة التى يفرغها العمال؟ تستطيع أن تجد لقمتها من البحر الشاسع، أو عند بوابات المخازن الكثيرة حيث يتناثر الأرز والقمح والأسماك المجففة الصغيرة .

إنها طيور .. طيور بيضاء جميلة .

جلس تحت سفينة خشبية كبيرة أهدتها عاصفة ما إلى الشاطئ أكلت صدرها بشراهة وقسوة ثم غرزتها فى الرمال والتراب فتوغلت فى الأرض وغدت جزء من ملامح الساحل .

الشمس الشتائية المراوغة كانت فوق رأسه، راحت تهدى إليه إبراً من وهج نارى غريب، وهو الذى توقع أن يكون المكان آمناً من غاراتها، وأن يكون البحر هائجاً عنيفاً ، رافضاً لأية ثرثرة قربه، لكن الشمس والبحر خيبا توقعاته .

فجأة أنفجر دوىٌ فى الفضاء . كأن ثمة رائحة بارود فى الهواء!

نهض بتكاسل، نفض الرمل العالق بثوبة، أقترب من السور . فوجئ باندفاعة طيور عند ودهه، كانت النوارس مثل عاصفة من الريش تذوب فى النور . كان الحارس ينفخ فى فوهة بندقيته ويضحك على الطيور الهاربة ..

حين يعود إلى المنزل سيصطدم بتقطيبة زوجته . سيترنخ وهو يتوجه إلى المطبخ الأوانى الفارغة غير المغسولة ستكون بانتظاره . ستقف على رأسه :

– أين ذهبت اليوم ؟ كالعادة .. القهوة والورق ..؟

– والأرق والعرق ..

– لا أريد أن يراك الأولاد وأنت بهذه الثياب التى استعارت ألوانها من قار الشواطئ وغبار الأرصفة .. وقئ الحانات !

يتخيل نفسه وهو ينحنى لها، ويتراجع إلى الوراء ويدور دورة وهو يتكلم بسرور

– إطمئنى يا حبيبتى .. وعدنى أحد معارفى بعمل فى غاية الإتقان والسهولة ووفرة المال، سأفتح مكتباً لتوريد الخدم .. أجلس وراء طاولة فخمة، ولدى عدة هواتف واتصل بعواصم كبيرة . وسأصرخ : أحد الأغنياء يريد طباخاً متخصصاً فى طهى السمك ! من يجلبونهم يحولون اللحم إلى جوارب محروقة ! اعثروا على دزينة من المغنيات والمغنين بحيث تستطيع أصواتهم أن تطيح بجدران قلعة !

يقف، يدور حول نصف الخشب المفتوح الفم . يستدعى سرب النوارس الهارب ويحيله إلى قطع قماش أبيض . يفتح أفواه أكياس الحبوب للمتفرجين وللعصافير . تخفت الأضواء وتتسلط على وجهه :

منذ زمن بعيد لم ألمس زوجتى . ثمة جبل من المغناطيس والكهرباء وبحيرة من الزجاج .. المنكسر . منذ زمن بعيد لم أداعب رؤوس اولادى ...هو الليل يأتى .. يا سيدتى ..

ينزل من على المسرح، فإذا الرمل اليابس وقشور رمان والساحات الملأى بالسيارات والعمارات الشاهقة تحتل الأفق، والحشود، والضجيج، والغرباء فى كل مكان، ومياه البحر أخرجت كتلاً من الأسمنت الشاهق ، كأسياخ من ضؤ وبرق ومردة.

ها هما صديقاه عتيق ومرزوق قد ظهرا . العملاقان الأسوادان يجتازان الشارع بحركة راقصة . يبتعدان عن بعضهما ثم يصطدمان فيبتعدان بقوة أكبر . لا يأبهان إلا للسيارات المزعجة التى قد تنتزع الزجاجة الثمينة التى نامت تحت إبط أحدهما وقد استترت بكيس ورقى غير شفاف يقترب عتيق أولاً، فقد أتاح له هزاله سرعة الحركة . ثوبه رافق البقايا والأرض طويلاً حتى يصعب انتزاعه منها لولا الرأس الفاحم والأسنان البيضاء والعينيان الحمراوان لدهسته سيارة منذ زمن بعيد .

ثم يتقدم مرزوق وقد أمسك الكنز بنفسه . رجل عملاق نظيف، يلبس بدلة عمل صفراء ، وكأنه يستعد لأداء مهام وظيفته الرسمية فى كل مكان لا يملك سوى هاتين القطعتين اللتين يبقى بدونهما عارياً عندما تقوم أمه بغسلهما برفق تام حتى لا تتمزقا، لأنه لو حدث ذلك فسوف يخرج مرزوق إلى الشارع مواصلاً نشاطه اليومى بلا تردد .

يقول :

– يبدو إن عدنان لم يأت . هو الذى حدد لنا هذا المكان ثم غاب .. لقد خسر تصيبه، ستكون جلسة ممتعة تحت هذا الجمل الكبير ..

يضحك عتيق بصخب :

– هل أنت أعمى ؟! ألا تراه جالساً هناك ..

– آه ، هو بداته، سيدى شيخ المشردين أسعدت صباحاً ..!

كان من الصعب على مرزوق أن يجد لنفسه موطئ قدم فى الظل القليل، لكنه بعد أن عثر على قطعة خسب شربت طويلاً من البحر أعطى رأسه للشمس دون أى انتباه لسلطانها . سأل :

– ماذا حدث يا عدنان .. يبدو إنك لم تشتغل البارحة ؟

– كيف لم يعمل .. لعله قد مثل عدة مشاهد وأبكى الكثيرين من الشلل الذى أصاب ذراعه .. أو تراه ..

ينهض عتيق فجأة وهو يضع ذراعه حول وجهه ، وكأنه يتلقى ضربات موجعة ، ووجهه تحول إلى ما يشبه العلبة المعدنية المدهوسة :

– يمثل كيف ضربات زوجته السمينة وهو يسقط بين مواعين المطبخ تقرقع حوله .. آخ..آخ..!

يصرخ مرزوق :

– أجلس .. كدت تسقط الزجاجة !

وضع مرزوق الزجاجة فى الوسط وهو يرمق عتيق باستنكار، ثم أخرج من جيبه مجموعة من الطماطم والخيار ، كان قد استعارها من بائع متجول غفل عن عربته ، واستخرج بصلة كبيرة ورغيفاً انتزعهما من شحاذ زائف .

عتيق كانت لديه الكؤوس الزجاجية الصغيرة التى كان من الصعب غسلها بعد أن استراحت قليلاً فى جيبه ، ثم وضع زجاجة المياه المعدنية، وراح يصب .

أمسك عدنان كأسه بأصابع قوية، رفعه فى صحة الأمواج النبيلة المندفقة بود قرب قدميه، وفى صحة النوارس الطيبة الفقيرة التى تشقى من أجل حبه قمح، وفى صحة الأيام التى وقف فيها على المسرح ..

كان يتحرك فى دائرة واسعة من الضؤ . رجلٌ خائن سيتظاهر بالأمانة والطهر عيون الجمهور القليل تلتهمه . المسرح صندوق صغير فى زاوية ضائعة بالمدينة . ثلاثة شهور من الشغل وتقطيع الجلد بالأنصال لكلمة وامضة هنا ، هى الذروة . أما أن تشتعل أو تغور فى اليم . ثمة ثرثرة تنمو فى الصالة . الظلام يتحرك . ثمة انفعال مخيف

لابد أن ينفجر ، هل يقدر عليه ؟ يتقدم على حواف العيون ، يوجع قلبه وجبهته .. يضم المحايدين إلى مصهره .. تمتد فى أيديهم الصرخات والشعل ..

فى الزقاق يرى شبحاً يتبعه . مدير الفرقة يبدأ مسرحية مختلفة، لا يجد فيها دوراً له، يتحول الممثلون إلى مجموعات من الديكة، وغدت القاعة ممتلئة والصراخ نافورة تملأ المكان!

يقول لزوجته : سأصنع شيئاً آخر . الأصدقاء يتجمعون، يستأجرون بيتاً عتيقاً ويرممونه الحوش يغدو لفرجة أهل الحى ولنوافذهم وضحكاتهم .

أمتلئ المسرح بالبشر . تتقدم باخرة عملاقة فى المياه، تدهس سفناً من خشب، تتناثر عرائسٌ وملابسٌ ونارجيلات وأطفال منها بحارة شبة عراة ونساء يقفون أمامها ينزل منها جنودٌ وعمالٌ وبغابا وباعة .

يتكاثر الناس حول المسرح، العائدون من أعمالهم، عمال الجبل المتعبون، تفاحات البيوت الناضجة : عرائس من النور والنار تتقدم على الشواطئ نخلات من زمن الرطب المشترك وسفين أبن يامن وصوت طرفة بن العبد يتقطر ويصير شخصاً ..

وفى الليل وأنت فى العرق والحلم ترى النار فى المسرح . يركض الناس للإطفاء، يحملون السطول والقلوب ومياه نهر كامل تتدفق عبر الأزقة ..

الناس يتحولون إلى حية من المياه، وكأن الفرجة ولمعة النور والضحكة السكين ثمينة كالأطفال ..

مضى ذلك الزمن، حتى الحى باعوه وحولوه إلى ثقوب تقطر نقداً .

قال عتيق :

– ثمة رجل نظيف يتقدم إلى سيارته، سأحاول معه .

نهض بتثاقل، وسار نحو الرجل الذى فتح باب سيارته لم يسمعا ما يقول، لكن حركاته المنكسرة ومحاولته تمثيل دور بحار تحطم قاربه ويخاف أن يرجع إلى بيته حيث صرخات أطفاله الجائعين تنتظره، يعرفانها جيداً، ويريان أداءه الجامد غير المقنع . يرجع خائباً.

يشاهد مرزوق رجلاً آخر يوقف سيارته . عمال صغار يتقدمون إليه، يتنافسون لغسل السيارة يتجه إليه، يصافحه باعتزاز، يسمعانه يتكلم بصوت عال وثقة :

– هل أجد لديك ديناراً واحداً؟ أنا فى حاجة ماسة إليه ، أريد أن أواصل السكر !

يدهش الآخر ويريد أن يتحرك لكن مرزوق يطبق عليه :

– أرجو أن لا تكون متضايقاً منى، أنا أنتظر ربان السفينة للإبحار، ولكنه لم يحضر، ماذا نفعل نحن البحارة غير السكر فى أوقات الفراغ ..

تعرف هذه عادة عالمية ! وهو لم يعطنا أجورنا حتى الآن ..

يبعده الآخر بغضب، يرجع مرزوق فتستقبله عاصفة من الضحك . يتأمل عدنان الضؤ والسور :

ها هم يركبون السفينة المقطوعة الصدر، النازفة الممتلئة بشراهة الرمل القواقع والحصى، المصلوبة على أسياف الوطن ، ألواحها عليها أشباح، يتغلغون بها فى المياه المنغمرة التى تطيح بهياكلهم العظيمة، يرفعون الشراع المنسوج من ثياب أطفال الحى الملونة الدامية ..

يصرخ عتيق :

– أنظرا حشد من سيارات المرسيدس !

رتلٌ من السيارات ذوات اللون السماوى الموحد، غيم وبروق كسياط من لهب، وثمة عقل على ثياب ناصعة وعباءات بها لون الخريف وخيوط من الذهب، وأجسام حديدية مثقلة بالحرارة توقفت قرب صدورهم .

انفتحت الأبواب، ونزلت أحذية ونعال كثيرة ، وتضاءل عتيق ومرزوق كثيراً ، ونهضا فجأة محنين إلى درجة لم ير ظهريهما بهذا التحدب . وكأن الضجة خفتت والأقدام مضت ولكن .. دب هدوء شامل وانفرج قوس الأجسام، وظهر لعدنان رجلٌ مألوف فى ثقلة ووحشته ..

– أنت .. لماذا لم تنهض ..؟!

وألتفت عدنان يمينه ويسره يبحث عن الصوت، حتى استقر على الجسم الكبير الذى نفخ الهواء فى عباءته فصار كالمنطاد :

– قلت لك .. أنت .. ماذا بك ؟ لماذا أنت متعفن فى ..

نهض عدنان ببطء، وراح يبعثر الرمل الناعم من على بنطلونه حدق فى الانتفاخ الهوائى، وراح يبحث بصعوبة عن وجه الرجل، لكنه لم يعثر على ملامحه، تأمل البحر لحظة، والسور، والنوارس التى عادت تحلق، قال :

– أنا ربان هذه السفينة المحطمة .. منذ زمن بعيد وأنا هنا .. قبلها كانت هذه سفينة كبيرة .. أمخرُ بها عباب البحر .. سفينة عظيمة تتصدى لقوارب ممتلئة بالمتسللين ..

حدق فيه الآخر وقال مذهولاً :

– بم تهذى يا رجل ..؟

– هذه كانت سفينة ! سفينة تحمى هذه الارض .. تنطلق بالريح وشراع منسوج من عباءات النساء وحقائب الأطفال .. تحرقُ السفن القادمة الغازية .. الآن لديهم بواخر عملاقة .. أنظر إنها تملأ المياه .. أنها تشطف الزيت وتلقى النفايات .. أنا هنا أحرس الرمل والعيون .. حتى ... جئت أنت ...

ترنح عدنان على أثر صفعة حادة، لكنه لم يسقط، مسح خيط الدم، ورمق الثلة المسلحة المتجهمة، وتخيل إنه يسمع تصفيقاً ويرى عيون المتفرجين اللامعة بالحب ..

# فهرس المجموعة


طائران فوق عرش النار ..... ٥

وراء الجبال ..... ١٩

ثنائية القتل المتخفى ..... ٢٥

البركان ..... ٣٧

سيد الضريح ..... ٤٣

وتر فى الليل المقطوع ..... ٥٣

أطياف ..... ٦٦

الرؤيا ..... ٨١

محاكمة على بابا ..... ٩١

الحارس ..... ٩٧

# عبدالله خليفة

- من مواليد سنة ١٩٤٨.
- خريج المعهد العالى للمعلمين بمملكة البحرين فى سنة ١٩٧٠، وقد عمل فى سللك التدريس حتى سنة ١٩٧٤.
- منذ سنة ١٩٨١ عمل فى الصحافة الاجتماعية والثقافية فى الصحف البحرينية والخليجية.
- كتب منذ نهاية الستينتات فى عدة أنواع أدبية وفكرية، خاصة فى إنتاج القصة القصيرة والرواية والدراسة الفكرية.
- عضو فى أسرة الأدباء والكتاب، ورأس مجلس إدارتها وهو عضو إدارى حالياً بها.
- صدرت له أول مجموعة قصصية سنة ١٩٧٥ عن دار الغد بالبحرين.
- ثم توالت أعماله على النحو التالى :
- اللآلئ، رواية، دار الفارابى، بيروت، ١٩٨١.
- الرمل واليأسمين، قصص قصيرة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢.
- القرصان والمدينة، رواية، دار الفارابى، بيروت، ١٩٨٢.
- الهيرات، رواية، دار الفارابى، بيروت، ١٩٨٣.

- يوم قائظ، قصص قصيرة ، دار الفارابى ، بيروت.
- أغنية الماء والنار، رواية، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٩.
- امرأة ، رواية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩١.
- الضباب، رواية، دار الحوار، ١٩٩٤.
- نشيد البحر، رواية، المركز الثقافى العربى، ١٩٩٤.
- سهرة ، قصص قصيرة، المركز الثقافى العربى،١٩٩٤.
- دهشة الساحر،مجموعة قصصية، دار الحوار/ حلب،١٩٩٧.
- الينابيع، جزء أول، رواية، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، الشاق، دولة الإمارات العربية المتحدة ، ١٩٩٨.
- الينابيع، جزء ثان، رواية، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، الشارق، ٢٠٠٠.

تحت الطبع :

- الينابيع، جزء ثالث.
- الاتجاهات المثالية فى الفلسفية العربية : ويصدر الجزء الأول والثانى قريباً.
- نجيب محفوظ بين الرواية التاريخية والرواية الفلسفية.
- الراوى فى عالم محمد عبد الملك القصصى.